## الفصـــل الخـــامس

## العلاقـــــات الاقتصاديـــــة

١ ــ الموحدون وسطاء للتجارة بين المشرق الاسلامى والمغرب •

٢ ــ تجارة السودان •

٣ ــ التنظيمات التجارية الموحدية والحفصية •

## العلاقـــات الاقتصاديـــة

## ( ١ )

## الموحـــدون وسطاء للتجارة بين المشرق الاسلامى والمغـرب

شهدت العلاقات التجارية بين المغرب والمشرق الاسلاميين فى عهد الخلافة الموحدية ازدهارا واضح المعالم لم تعرفه البلاد منذ القـــدم • فكانت كل من الاسكندرية وتونس مركزين هامتين ارتكزت عليهما التجارة العربية الشرقية • فموقع الاسكندرية الفريد على البحر المتوسط عنـــد الطرف الغربى لفرع رشيد أهلها لان تكون همزة الوصل بين وادى النيـل وصحراوات المغرب الشمالية وأقاليمه الساحلية العامرة ، حيث يمـــر الطريق القديم الذى يصل بين أقصى المغرب ( من سجلماسة فى الجنوب الى فاس وتازة ) عبر الممر الافريقى الى تونس ثم طرابلس الـــى الاسكندرية ومنها الى السويس شرقا فالطريق الرئيسى المؤدى الـــى الحجـــاز •

وبحكم موقعها الفريد بحرا بحذاء ميناويها الشرقية والغربية كانت بر الامان لجميع الرحلات البحرية سواء للتجارة أو للحج أو بقصد طلب العلم ، كما كانت ملاذا للمغاربة وأهل الاندلس فى فترات الاضطـــراب التى كانت تشهدها بلاد المغرب والاندلس والتى سبق الحديث عن أمثلة لهـــا [١] •

---

(١) ابن بطوطة ، تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، تحقيق : أحمد العوامرى ، ومحمد أحمد جاد المولى ، القاهرة ١٩٣٤ ، ص ١٤ هذا بالاضافة الى أن الاسكندرية كانت بالنسبة للمغاربة تعنى دار الربـــاط انظر د . عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢٤٦ .

لذلك صارت المدينة مستقرا لكثير من المغاربة والاندلسيين وغدت وطنا ثانيا لهم (٢) .

أما مدينة تونس ، فقد سبقت الاشارة الى التصور الموحدى لاقتصادياتها فيما سجله الفاتحون الموحدون فى مجموع رسائلهم ، وكانت بموقعها الساحلى منفذا رئيسيا أيضا للطريق البرى الذى أشرنا اليه . وبحكم هذا الموقع الساحلى المتوسط فى السيف الجنوبى لحوض البحر المتوسط ، غدت تونس فى العصر الموحدى مركز جذب هام سياسى وتجارى فى آن واحد مجددة بذلك دورها القديم ودور الموانى المغربية بوجه عام فى تاريخ العلاقات التجارية (٣) .

فأجنذبت اليها النورمان الصقليين وبنى غانية الميروقيين الى أن تم طردهم على أيدى الفاتحين الموحدين . كذلك اجتذبت تونس اليها البيوت التجارية الاوربية التى عقد معها أبو ز كريا الحفصى اتفاقياته . وكانت هذه الاتفاقيات حلقة وصل كبيرة فى تاريخ العلاقات التجارية بين ميناء تونس الحفصية والاسكندرية المنفذ البحرى الشرقى لدولة المماليك وقد ساعد على تعميق هذه العلاقات وتوثيق أواصرها ما سبقت اليه

---

(٢) د . سعد زغلول ، الاثر المغربى ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٣) تعرضت المراكز التجارية القديمة مثل أوتيقة Utica أى قرت عتيقت بمعنى المدينة العتيقة تمييزا لها عن قرت حدشت بمعنى المدينة الحديثه قرطاجنة ، وتقع على بعد ٣٠ كلم من الشمال الشرقى من تونس ، للدمار بعد الحروب البونية الثلاثة ولكن سرعان ما أستردت أهميتها الاقتصادية فى أعقاب الفتح الاسلامى . فأعيد بناء الموانى العديدة بدور صناعتها ، ومن أهم هذه الموانى المطلة على البحر المتوسط ميناء تونس فى القرن ٧ هـ ، وموانى بجاية والمهدية ( ٩١٥ م ) وقابس وسوسة وبنزرت . أنظر : عثمان الكعاك ، العلاقة بين تونس وايران عبر التاريخ ، تونس ١٩٧٢ ، ص ٣٢ . كذلك وقعت تونس معظم الوثائق التجارية كما هو واضح من بنود نصوص الملاحق

الاسكندرية فى هذا المضمار منذ عهد الفاطميين بحيث غدت مركزا تجاريا عالميا بعد أن كانت مجرد ثغر للجهاد أو جهة قتال • وأحتفظت الاسكندرية بمركز الصدارة بين الثغور التجارية فى حوض البحر المتوسط فتوثقت صلاتها بثغور أوربا وقدمت اليها السفن من بيزنطة ومن المدن الايطالية ، وصارت فى القرن الرابع عشر الميلادى قطب الجاذبية فى التجارة الصادرة أو الواردة بين الشرق والغرب على السواء • فمما يذكر عن فريسكو بالدى الفورنسى أنه كان يرى « من السفن فى ميناء القاهرة فى زمانه أى عام ١٣٨٤ م أكثر مما فى جنوة أو البندقية » (٤) • فكانت السفن التجارية تصل اليها من جنوة والبندقية وبيزة وأيضا من مرسيليا (٥) •

ويذكر هنرى بيرين أن هذه التجارة كان هدفها الربح المادى بالرغم من القيود والتحفظات الدينية التى لم تمنع المدن البيزنطية والايطالية من استعمال سفنها لتجديد الصلات التى كانت قائمة بينهما وبين افريقية فى المغرب وبين مصر والشام فى المشرق (٦) • بل هناك من يقول بأن الاسكندرية كانت تضم أعدادا لا تحصى من الجنسيات الاوربية داخل أسوارها ، وأنه بالرغم من التحذير السابق للتعامل مع المسلمين فأن تجار البندقية لم يترددوا فى النزول بثغر الاسكندرية فى فترة مبكرة ( من عام ٨٢٨ م ) (٧) • وذهب بيرين الى حد القول بأن البحر المتوسط وأن كان قد

---

(٤) جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٢٢٤ . أنظر أيضا د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢٥٧–٢٦٣

(٥) — W. Heyed; Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, Paris, 1885. pp. 53. 92—94.

(٦) — H. Pirenne; Mohamet et Charlemagne, Paris, 1937, p. 14.

(٧) عادل ابراهيم يعقوب ، التاريخ الاقتصادى للشرق الاوسط ، بغداد، ١٩٨٠ ، ص ٣٨ .

تحولا نتيجة لظهور الاسلام الى خط فاصل بين الشرق والغرب ثقافيا وسياسيا وروحيا ، فأنه لم يكن كذلك فى مجال التجارة والتعامل المادى اللذين أحتفظا بنشاطهما فى مياهه ومراسيه (٨) .

ومن المعروف أن قطالونية سرعان ما تولت فى العلاقات الاسبانية التجارية بالبحر المتوسط دورا متطورا الى حد منافسة المدن الايطالية . واذا كانت معلوماتنا عن علاقاتها بأفريقية فى القرن ١٣ م وبداية القرن ١٤ م مانزال طفيفة ، فأن التعامل التجارى القطلونى مع تونس لم يلبث أن أرتفع من ١٠٠ ألف بيزنت الى ٣٠٠ ألف سنويا ، كما أرتفعت تجارتها مع بجاية من ١٢ ألف الى ٢٤ الف دينار (٩) .

واذا كانت الاساطيل الاسلامية فى الموانى الموحدية بالمغرب الاسلامى تستهدف أساسا الجهاد العسكرى ، الا أن الامر لم يخل من تجهيز عدد من قطعها على نسق البحرية القطلونية التى مارست ذلك منذ تاريخ مبكر . وليس أدل على هذا القول من العدد الضخم من السفن التى أمر عبدالمؤمن بانشائها فى سواحل العدوة والاندلس ، وبلغ عددها زهاء ٢٠٠ قطعة من بينها ١٢٠ قطعة فى مرسى المعمورة ، ومائة بالريف ، ومائة بدور صناعة افريقية وثمانون بصناعة الاندلس (١٠) .

---

(٨) — H. Pirenne, Op. Cit., p. 14.

(٩) نجاة باشا ، التجارة فى المغرب الاسلامى ، ص ٧٠ . والبيزنت عملة أسبانية فضية . انظر : حسن حسنى ، النقود العربية ، ص ٣٥ .

(١٠) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ص ٢١٣ — ٢١٥ . انظر ايضا عن البحرية فى حوض البحر المتوسط : أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية ، ترجمة أحمد عيسى ، مراجعة محمد شفيق غربال ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٣٨٧ — ٣٩٩ . أنظر أيضا : د . سالم ، د . العبادى ، تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والاندلس ، ص ٢٥٤ — ٢٥٦ وأيضا :

— A. Julien; Histoire de L'Afrique de Nord, p. 124.

ونكتمل صورة هذه العلاقات التجارية من حيث اتساع مجـــــال نشاطها الى حد أنها شكلت رابطة وثيقة بين المشرق والمغرب وفقـــــا للموضوعات التالية :

أ ــ التجارة بين المشرق الاسلامى والغرب الاوربى •

ب ــ التجارة بين المغرب الاسلامى والغرب الاوربى •

جـ ــ التجارة بين المغرب والمشرق داخل العالم الاسلامى • (١١)

لذلك ، فان الحديث عن أحد أقطاب هذه الرابطة التجارية فى العصر الموحدى يفى بالغرض الكلى ، لا سيما اذا ما توفرت الوثائق التى نستند عليها فى تصوير الحركة التجارية ، ولقد أستعنت فى ذلك بعدد من الرسائل التجارية تبادلها الخلفاء الموحدون والحفصيون مع المدن الاوربيـــــة التجارية (١٢) • وهى رسائل تتضمن مادة علمية أساسية تسلط الضوء على طبيعة العلاقات مع الثغور المشرقية لا سيما الاسكندرية كما تبرز الرابطة التجارية التى أشرت اليها (١٣) •

ومن بين تلك الرسائل واحدة ورد فيها ما يلى : « ••• من أن أمورهم كانت عندنا جارية على مرادها وسارية مسرى أعتقادهم وأنها الآن حالت عن معهودها وخرجت عن قنونها فى وصول المركب الذى وصـــــل مـــن

---

(١١) — CL. Cahan, Le Commerce dans le Monde Musulman a Son Apagée, UNEF, FGEL, année 1966—1974, p. 36.

(١٢) — Michele Amari; Documenti Degli Archivi Toscani.

وهذه الرسائل مكتوبة بالايطالية والعربية لم تنشر بعد حصلت عليهـا المغرب من ايطاليا فى عام ١٩٧٥ ، وتحتفظ بها اليوم دار الوثائق بالرباط تحت رقم A O 4 583 / 1 bis

(١٣) انظر الملحق رقم ١٠ .

الاسكندرية وما كان منا اليه بعذر يأتى هذا ، عند المشيخة مقبولا لانا كنا بعثنا مركبا الى الغزو فزعبه الضرورة الى دخول الاسكندرية فأكرم هناك وأجرى مجرى العناية وما يسعنا أن نقابل عن ذلك الاكرام الا بمقتضاه فوصل ذلك المركب فزودناه وباع بمدينة تونس حماها الله » . (١٤)

ونتجسم فى موضع آخر منها صورة العلاقات الموحدية فى هـــذا الاطار الى حد القول : « ... ونحن نهدى اليهم من السلام أعطره وننثر عليهم دره ونذرف بذكرهم مسكه وعنبره ونحضر فيهم كل يوم محضرة لما انعقد قديما وحديثا من السلاف والاحلاف منا ومنهم ومن أسبـــاب المحبة ومتقدم الصحبة والمودة .. وشجت بيننا وبينهم أواصر الاتيلاف وأستمرت منا ومنهم المحبة .. » (١٥)

ومع ذلك ، لم يخل أمر هذه العلاقات من مشكلات كانت وراء تبادل مثل هذه المراسلات ، سواء ما كان ينجم من أخطار الطبيعة أو نشـــاط الجهاد البحرى ( القرصنة ) غير الملتزم بالتعهدات الرسمية . فنجد احدى الرسائل الموحدية تقول بصدد الظاهرة الاولى ( الاخطار الطبيعيـــة ) : « .. من مدينة بيشة حرسها الله أنا مركب من تجارنا وأهل قطرنـــا وأنظارنا أوسقا بالقمح من جزيرة سقلية وأقلعوا يردون (١٦) مدينـــة طرابلس حماها الله ، فأسقطهم الريح فى أحوازها وكان الماء قد عجزهم (١٧) فنزلوا الى البر ليستقوا ، فلم يتركهم أهل الموضع الا حتى بعـــوا (١٨)

---

(١٤) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ١ ، مؤرخـــة فى جمادى الاولى من سنة ٥٥٢ هـ فى عهد عبد المؤمن الى أرك بيشة — بيزة — وقناصلتها وقمامصتها العامة والخاصة ، ص ٤ — ٥ .

(١٥) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ١ ، ص ٣ .

(١٦) يقصد يريدون .

(١٧) يقصد أعجزهم .

(١٨) يقصد ابتاعوا .

منهم من القمح قليلا ، فلما كان فى اثر هذا وصل مـن مدينة اطرابلس غرابا [١٩] معمرا من عند واليها ومقدمها وقبض على القوم وأنهبهم وقبض على الذى وجد فى المركب من التجار ونجا بعض منهم فى العشارى [٢٠] ، وقذفوا حتى وصلوا الى طرابلس .. » [٢١] . وقـد يترتب على تـلك الاخطار الطبيعية قسوة فى معاملة التجار فى الموانى الافريقية ، وبالتالى تطلب بلدانهم عودة كل التجار وما يحملون من مواد تجارية على أساس : « .. لا نائبة تنوبهم ولا ضريبة تلزمهم سوى العشر المعتاد » [٢٢] .

أما بالنسبة للجهاد البحرى الذى يطلق عليه فى المصادر الاوربية القرصنة ، فان الموحدين قد التزموا الى حد كبير بعهودهم فى علاقـاتهم الخارجية ، لذلك ، حظيت جهودهم البحرية بالتقدير فى هذا الشأن وأدى ذلك الى الحد كثيرا من الاعمال البحرية ( الجهادية ، القرصنة ) الخارجـة على مواثيقهم . فالاصل فى الحركة التجارية البحرية أن تكفلها مواثيق الامن والحرية بين أحداث الحروب الجهادية والصليبية . كذلك اقتضت علاقات هذه الفترة التزام التجار الاوربيين أثناء اقامتهم فى الموانىء الاسـلامية مشرقية ومغربية[٢٣] برسوم ذلك العهد وحدوده واتباع مراسمه المتعارفة بحيث لم تكـن تضرهم أو تفـزعهم المطالب غير المألوفـة ، بحيـث لم

(١٩) صحتها لغويا غراب .

(٢٠) يعنى بالعشارى الفلك أو الزوارق .

(٢١) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ٢ ، فى عهد يوسف بن عبد المؤمن ، وهى غير مؤرخة وبالعودة الى الترجمة الايطالية وجد التاريخ الميلادى : ٢٣ أبريل ١١٨١ م ، ص ٧ — ٩ .

(٢٢) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ٢ ، ص ٩ . انظـر الملحق رقم ١١ .

(٢٣) انظر عن استقرار أهل جنوة وبيزة والبندقية فى تونس وبجاية :

— R. Le Tourneau; L'Occident Musulman du VIIes a la fin du Xve's.

فى مجلة ALEO ، الجزائر ١٩٥٨ ، ج ١٦ ، ص ١٤٧ — ١٧٦ .

يتعرضوا لاى أذى سواء فى البر أو فى البحر[٢٤] . وكان الخوف من نهاية آجال المعاهدات التجارية وعدم قدرة التجـار الاوربيـين على الاحتفاظ بمكانتهم التجارية فى الموانى المغربية ، دافعا الى تجديد المراسلات مـع الخلفاء الموحدين . وفى هذا الصدد ، جاء فى رد الخليفة الموحدى يعقوب المنصور : « .. أنه ما زوى له من المشارق والمغـارب والاكناف والارجاء والرضا عن الامام المعصوم المهدى المعلوم محيى رسوم الدين بعد الدروس .. مظهر معالم الشريعة بعد ما تناولها الجهل بيد الاضحار والاخفا وعن خليفته أمير المؤمنين .. ابن أمير المؤمنين .. ابن سيدنا الخليفـة أمير المؤمنين .. من الصلح للقناصلة والاشياخ والاعيان والكافة من أهل بيشة وجهاتها من بلد العتيق الى قاب قرب والجزائر التى هى سردانية وقرصة وايلنيزة والبة وقبرارة ومونت اقرشت وجلية وقـرقنة وكل من فيها من زعمائهم وأعيانهم اطرروان بن تدسك واستنابوه فى العقد لهم وعليه .. فعرف رسولهم المذكور برغبتهم فى ادامة الهدنة لهم .. وأنهم ملتزمون لكل شرط يشرط عليهم ومنتهون الى جميع مايحل لهم .. وأجاب مسئلتهم وأمر لهم صلح على عادتهم وهدنتهم وعقد لهم السلم الى مدة من خمس وعشرين عاما من تاريخ هذا الكتاب على الامنة التامة والمعدلة الشاملة العامة ، وأذن لهم أعلى الله اذنه ووصل انعامه ومنه فى الوصول الى بلاد الموحدين أعزهم الله للتجارة فيها والتجهيز بها وقصرهم على أربعة بلاد من جملتهـا وهى سبتة ووهران وبجاية وتونس حماها الله ولم يبح لهم النزول بغيرها ولا الاحتلال بسواها الا لضرورة من صعوبة البحر »[٢٥] .

---

(٢٤) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ٣ ، ص ١٠—١٣ مؤرخة ( وسط الرسالة ) فى ٢٠ صفر ٥٨٠ هـ / يونيو ١١٨٢ م ، وذلك فى عهديوسف بن عبد المؤمن .

(٢٥) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ٥ ، مؤرخـة فى رمضان ٥٨٢ هـ / نوفمبر ١١٨٦ م ، ص ١٩ — ٢٠ .

وواضح من هذه الرسالة وسابقتها أن الدولة الموحدية حددت أسلوب تعاملها مع التجار الاوربيين كما حددت المراسى التى يدخلونها والاعراف التى يخضعون لها(٢٦) .

ورغم تحديد الموانى والمراسى المغربية التى يجب التعامل التجارى فيها فقط ، الا أن هذا لم يمنع من تعرض سفن التجار الاوربيين لاعتداءات قراصنة أوربيين ، مثلما حدث فى ميناء تونس عندما تم استيلاء تجار بيزة على مسطحين ( سفينتين ) هما — الاركليوسة واكرناطة — وأسر ثلاثة مراكب للمسلمين بما فيها من تجار وركاب وتجارة ، وقتل جماعة من المسلمين ، وما ترتب على هذا الاعتداء من انتهاك الحرمات وفضح الحريم وموت البعض غرقا فى البحر ووقوع عدد من الجرحى . ولهذا السبب اتخذ الموحدون اجراءات مشددة لمعاقبة المعتدين بالعقوبة المنصوص عليها فى قوانين الدولة الموحدية طبقا للشريعة الاسلامية ، لكى يكون ذلك الحكم رادعا لغيرهم فلا يتجاسر أحد القراصنة بعد ذلك على التعرض للمسلمين « لا بأخذ ولا مضرة » ، وهذا نفس ما كان يفعله أشياخ وأعوان وتجار جنوة فيمن قصد المسلمين بأذى من أهل بلادهم(٢٧) . كذلك كانت تلك المراكب التجارية تنتقل فى جماعات ، وكثيرا ما كانت تخفرها مراكب حربية لحمايتها مما عسى أن يداهمها من اعتداءات القراصنة(٢٨) .

ولقد أحدث ذلك رد فعل لدى بعض التجار لا سيما البيزيين الذين

---

(٢٦) —Robert S. Lopez; Medieval Trade in the Mediterranean World, U.S.A., 1961, p. 303—317.

(٢٧) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ٦ ، مؤرخة فى شهر ذى القعدة سنة ٥٩٦ هـ ، ص ٢٣—٢٨ .

(٢٨) نجاة باشا ، المرجع السابق ، ص ٨٣ . ويؤكد أيضا أن القرصنة من السلوك المتعارف عليه فى تلك الفترة من الزمن حتى أن التجار انفسهم كانوا لا يتورعون عن تعاطيها كلما سنحت الفرصة بذلك .

فقدوا ثقة الموحدين بهم ، وكانوا يهتمون أصلا بالتجارة ومسالكها وربط الغرب وموانيه بالشرق لمزيد من الفائدة والربح السريع ، فبادروا بالسعى لاسترجاع ثقة الدولة فى تعاملهم التجارى • وبعد بحث واستقصاء عنهم صدر لهم كتاب الامان على أن : « ••• يصلوا الى بلاد افريقية حاطها الله محمولين على الرعاية والعناية محوطين بكانف الكفاية والحماية •• وحيث حلوا من معاقلها وسواحلها وبرها وبحرها فى مسالك تجارتهم وترددهم بها ومتصرفاتهم لا يعترضهم فى شىء منها متعرض ولا ينغضب لهم هذا الحبل المتين »(٢٩) •

ومما لا شك فيه أنه ترتب على عملية القرصنة ضياع جزء كبير من التجارة الصادرة من الغرب الى المشرق عبر أوربا وتجارها • الا أن الموحدين استطاعوا حل تلك القضايا المختلفة بأخذ قيمة ما استولى عليه القراصنة من اخوانهم المقيمين فى الموانى سالفة الذكر حسب الشريعة الاسلامية وذلك بحضور القاضى والاشياخ والشهود بالجامع الاعظم • واجتهد فى معرفة قيمة ما أخذوه من كل تاجر واسترداد قيمته نقدا من بيع قمح تجار بيزة المقيمين فى تلك الموانى • بل استطاعت الدولة فى مواضع أخرى حل تلك المشكلة عن طريق مراسلة حكام بيزة ليقوموا بأنفسهم بتوقيع العقوبات على هؤلاء القراصنة(٣٠) • وهناك حقيقة لا بد من الاشارة اليها ، فعندما كان الموحدون يؤكدون على خطورة عمليات القرصنة ، فان

---

(٢٩) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ٧ ، ص ٢٩ — ٣٠ ، رسالة رقم ٨ ص ٣١—٣٢

(٣٠) ميشيل امارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ٩ ، مؤرخة فى ذى القعدة سنة ٥٩٦ هـ ، ص ٣٣ — ٣٥ . ولمزيد من تلك العقوبات عن طريق الاتصال الدبلوماسى راجع :

—R.S.Lopez; Op. Cit., p. 31617.—

الامر كان يعنى فى نظرهم أيضا تأمين الطريق التجارى عموما بين المغرب والمشرق • وهذا واضح من خلال ما ورد فى احـدى الرسائل بأن معظم ركاب سفن القرصنة التى أخذت من مرسى مدينة تونس كانوا من أهـل تونس وبواديها ، وحجاج مغاربة كانوا قد خرجوا من المغرب متوجهين الى المشرق عبر الاسكندرية ، بالرغم من نفى الرسالة لذلك : « ••• ولم يكن فيه من أهل الاسكندرية الا رجل واحد ولم يكن معه الا شىء يسير »(٣١) •

وقد حاولت الدولة الموحدية من ثغورها المغربية القيام بدور رئيسى لحماية طرق التجارة البحرية فى حوض البحر المتوسط الغربى ، ورائدها فى ذلك القول المأثور الوارد فى احدى الرسائل : « •• يعز من والاه ويذل من عاداه ويحفظ من تمسك بعهده وذمته وحافظ على صنائعه الجسيمة »(٣٢) • كما كان رائد الموحدين فى هذه العلاقات التجارية ما سبق من معـاملات انتظمت فى الموانى المشرقية ، وعلى حـد قول رسالة أخرى: «••الواصلون بكتابنا هدا اليكم على ما سلفت به عـوائدهم من التصرف فى تجـارتهم والتغلب فى بضاعتهم ، وعاملناهم فى جميع أموالهم بما توجه •• الذمة لهم ووصينا بأن أ •• بلوا بالخير فى كافة أمورهم •• »(٣٣) ، حتى لا تكون أقل من مثيلاتها من الموانى المشرقية(٣٤) •

---

(٣١) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ١١ ، ص ٣٨ — ٤٢ . وبها تفصيلات عن عملية القرصنة وانهاب الركاب مع تقدير قيمة مانهب من كل راكـب .

(٣٢) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ١٣ ، مؤرخـة فى رمضان سنة ٥٩٧ هـ / يونيو ١٢٠١ م ، ص ٤٥—٤٧ .

(٣٣) ميشيل أمارى ، المصدر السابق .

(٣٤) ميشيل أمارى ، نفسه ، رسالة رقم ١ ، ص ٤—٥ . والوارد فيها ذكر الاسكندرية .

## ( ٢ )

## تجـــارة الســـودان

### ( أ ) الطرق التجارية فى بلاد المغرب :

كان الطريق التجارى البرى الى قلب القـــارة الافـــريقية من أهم المســـالك الافريقية بسبب الوحدة التضاريسية لبلدان المغرب التى تؤلف حاجزا طبيعيا مانعا تيسر سبل الاتصال شرقا ويعسره جنوبا • لذلك كانت المسالك المؤدية الى بلاد البربر والمعابر الموصلة الى المغرب تمتد من المشرق الى الغرب وبالعكس • وكانت هذه المعابر فى حد ذاتها الطرق التى كانت تسلكها القوافل التجارية ما بين الشرق والغرب(٣٥) •

وعلى جانب هذه الطرق أقيمت الرباطات ووقفت عليها أوقاف كثيرة فى افريقية(٣٦) ، ثم أقيمت الحصون وأنشئت القلاع لحماية البلاد ، وفى ظل هذه الحماية وتوفر وسائل الحياة فى هذه الطرق كان التجار يقبلون على التعامل التجارى بقدم ثابتة ، وكان ذلك مقدمة لاقامة مـــراكز التجـــارة والاسواق واختطاط المدن ساحليا وداخليا(٣٧) •

ومن الجدير بالذكر أن مسلكين هامين كانا يخترقان بلاد المغرب مع الاتجاه الطبيعى للتضاريس من الشرق الى الغرب :

١ ــ طريق الهضاب المرتفعة أو ما يعرف بمنطقة شط الجريد باقليم تونس ويدور حول جبال الاوراس بحيث يمر بحـــوض الطـــرف وبممر

---

(٣٥) —H. Pirenne; Les Villes qu Moyen Age, Essai d'histoire Economique et Social. Bruxelles, 1927, pp. 120—123.

(٣٦) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٤٩ .

(٣٧) نجاة باشا ، المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

الحضنة ثم ممر تازة بالشمال الغربى من بلاد المغرب • وكانت القيـروان وما أضيف اليها من بلدان الساحل التونسى متصلة بهذا الطريق الذى يتفرع منه طريق ثانوى نحو بجاية فى الشمال ونحو بسكرة وورقلة فى الجنوب •

٢ — ( أ ) طريق القصور ويلى الطريق الساحلية التى تبـدأ من مصر مرورا ببرقة وطرابلس ثم تتبع السـفح الجنـوبى من الاطلس الصحراوى فى اتجاه الجنوب الغربى من المغرب الاقصى • وتتمثل أهمية هـذا الطريق فى ربط المسـالك الصحراوية بالاندلس وجـزر البحر المتوسط ، ومن أهم مدنه تاهرت وورقلة وسدراتة ومزاب وهو ما يعرف أيضا بمنطقة المغرب الاوسط •

(ب) مضيقات الاطلس المغربى أو ما يعـرف بمنطقة المغـرب الاقصى بواجهاتها البحرية ، ومن أهم مدنها القديمة مدينة أودغست على طريق تجارة هامة هى الذهب والملح والرقيق من بلاد السودان ، وفاس وسجلماسة[٣٨] وتكرور وأهميتها لمعدن الذهب ، وأغمات ومراكش وسوس ونول ولمطة على ساحل المحيط • وهذه المدن الاخيرة هى نهاية القـوافل التجارية المنبعثة الى السودان ، ومن هنا كان انشاء شبكة من المدن شكلت عبر اتصالها فيما بينها العمود الفقـرى

---

(٣٨) هناك تشابه كبيرا جدا بين القيروان وسجلماسة فى مناخهمـا الصحراوى ، وفى مدى أهمية كل منهما ، فالقيروان مركز هام فى افريقيـة ، وسجلماسة مركز للقوافل التجارية على باب الصحراء القادمة من السودان : انظـر :

— Lopez; Op. Cit., p. 52—53.

التجارى الاسلامى بين المغرب والمشرق كما كانت تخرج منها دورة التيارات العظمى للتجارة[٣٩] .

لذلك أوجدت هذه المسالك مع وحدتها الجغرافية وحدة اقتصادية ووحدة عمرانية تمتد من الجنوب الغربى من بلاد السودان الى القارة الاوربية فى الشمال ومن الجنوب الشرقى المغرب فى الشرق الى الصين فى الشرق الاقصى .

وعبرت القوافل هذه المسالك مخترقة الصحراء عبر طرابلس الى أجدابية ومنها الى الاسكندرية حيث تتفرع عبر صعيد مصر الى عدد من المدن والثغور على البحر الاحمر ومنها الى جزيرة العرب وعدن الى الشرق الاقصى . ومن الاسكندرية يتجه فرع آخر الى ثغور الشام ببيروت وصور وصيدا ، ومنها بالطريق البرى حتى جزيرة فيلكة الى ايران والهند والصين. وكانت فيلكة مركز تجمع هائل للمواد الآسيوية .

كانت هذه المسالك البرية واضحة المعالم وتنقسم الى مسافات تقدر بالمراحل والاميال والفراسخ . فطول المسافة على سبيل المثال من القيروان الى السوس الاقصى على المحيط الاطلسى ألفان ومائة وخمسون ميلا[٤٠] . وكثيرا ما كان يتولى حراسة الطرق التجارية رجال أشداء من نفس القوافل التجارية . وتعود أهمية هذه المسالك الى القيمة العالية للسلع المنقولة عبرها وأهمها الذهب والعبيد .

---

(٣٩) د . الحبيب الجنحانى ، المغرب الاسلامى ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية ( ق ٣ — ٤ هـ / ٩ — ١٠ م ) تونس ١٩٧٧ ، ص ١٣ — ١٩ .

(٤٠) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص ٨٩ .

## (ب) تجـارة الذهب والملـح :

أما الذهب فقد طرأ تحول على طريق تجارته القديم بين بلاد السودان والمشرق • فقد أهمل الطـريق التجارى الذى يربـط بين غانة ومصر عبر بلاد النوبة[٤١] لمـا كان يمثله من خطر على القوافل ، وهذا الخطر يتمثل فى الثورات والانتفاضات التى كان يقوم بها الاعراب رفضا لدفع الجـزية وخروجا على الاحتكار الايوبى والمملوكى للمواد التجـارية الهامة ومنها الذهب •

لذلك أصبح الطريق الرئيسى لتجارة الذهب هو طريق السودان الغربى عبر مراكزه التجارية مثل تمبكتو وتكرور [٤٢] الى مسالك أعالى السنغال والنيجر ثم مراكش غربا ، ومنها الى تونس ثم طرابلس ومصر • وفى ذلك يقول الادريسى : « •• أن السودان بلاد التبر وأنه أكبر غلة عند السودان، وأنهم عليها يعولون صغيرهم وكبيرهم[٤٣] • فكانت القوافل التى تسير فى الصحراء الكبرى الآتية من الجنوب تحمل الذهب والعبيد ، وكان الحمالون يحملون الملح ويعودون بالذهب •

---

(٤١) لموقع غانة فى شمال وادى الذهب أعالى النيجر والسنغال ، فهى تعرف بأسم أراضى الذهب . ويرجع ثراؤها الى تحكمها فى تصدير الذهب الى الشمال ومقايضته بالملح والمواد الاخرى فى الجنوب . وأصبحت تجارة الذهب الشريان الرئيسى فى حياة هذه المملكة ، أنظر :

— Roland Oliver; A Short History of Africa, London, 1970, p. 61.

وعن علاقة مصر ببلاد النوبة من عام ٦٥١ هـ انظر أيضا :

— R. Oliver, Op. Cit., p. 70.

(٤٢) د . أبراهيم على طرخان ، دولة مالى الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ص ٧٤ — ٧٥

(٤٣) الادريسى ( أبو عبد الله محمد بن محمد بن الشريف الادريسى ) ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م ، نزهة المشتاق فى اختراق الافاق ، ط د وزى ، ليدن ١٧٦٦ ص ٨ .

وكانت طرق القوافل الى كانم وغانا فى الغرب محل اهتمام خاص من حكام القاهرة الذين اعتمدوا على الذهب المستورد منها لسك دنانيرهم فشنوا العديد من الحملات والغارات العسكرية لتأمين طريق الذهب ، لكثرة تعرض التجار لعبث اللصوص فى هذا الطريق وتحوله الى الطريق المارة بالمغرب(٤٤) • ويذكر ابن خلدون علاقة مصر بمملكة مالى عبر تجار الذهب فيقول معتمدا على رواية شفاهية من عصر مارى جاطة بن مانسا ملك مالى فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى : « •• انه بذر وأسرف واضطر الى بيع حجر الذهب الشهير الذى كان فى ذخيرة مملكة أسرته وهو حجر يزن عشرين قنطارا منقولا من المعدن من غير علاج بالصناعة ، ولا تصفية بالنار ، فعرضه جاطة هذا الملك المسرف على تجار مصر المترددين الى بلده وابتاعود بأبخس ثمن »(٤٥) •

وكان هؤلاء التجار قد سلكوا الطريق القديم المارة بالقيروان وبلاد الجريد وورقلة وتاهرت وتلمسان وفاس وسجلماسة ، وكلها مراكز تجارية نشيطة كانت تتجمع فيها كميات هائلة من الذهب • ولم يقتصر التجار الذين يتعاملون مع تلك المراكز التجارية المؤدية الى السودان الغربى لتجارة الذهب والمواد الاخرى على تجار مصر بل تعداهم الى تجار العراق والشام(٤٦) •

---

(٤٤) ظلت مالى وغانة تتصدران تجارة هذا الطريق طوال عصر دولتى المرابطين والموحدين حتى ظهور الحفصيين ، لتظهر فى عهدهم مملكة كانم فى السودان الاوسط فى لقرن ١٣ م وامتدت سلطاتها حتى فزان ، مما أوجد علاقات واسعة بينها وبين الحفصيين فى تونس . أنظر :

— R. Oliver, Ibid., p. 91.

(٤٥) ابن خلدون ، العبر ، ط بيروت ، ١٩٥٩ ، ج ٦ ، ص ٤١٨ . أنظر الملحق رقم ١٧ .

(٤٦) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٢٤ .

وكانت المراكز التجارية الواقعة على نفس الطـريق تصدر بضائـع أخرى غير الذهب والعبيد أهمها : الحبوب وزيت الزيتون[٤٧] واللحـوم والقطن والخشب والملح والتمر والعسـل والسكر والنحـاس المصنوع والشموع والجلود والزئبق ( له أهمية فى صناعة الذهب ) وغيرها • فكانت سجلماسة تصدر الى السودان أنواع التمور والزبيب والنحاس المصنوع والمنسوجات السجلماسية الشهيرة ، ويعود التجار بالتبر والرقيق • كذلك كان الملح من أهم ما يحملهالتجار السودانيون ، وفى هذا يقول ابن حوقل : « وربما بلغ الحمل من الملح فى دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتين الى ثلاثمائة دينار •• »[٤٨] •

وكما سبق الاشارة ترجع أهمية مالى السودانية الى ضخامة ثروتها التى تدفقت عليها من حقول الذهب الواقعة فى منطقة ونقارة وتشتمل على أربعة مناطق :

١ ــ بامبوك الواقعة بين السنغال الاعلى وفرعه فاليم •

٢ ــ بور عند التقاء النيجر الاعلى برافده تنكسو •

٣ ــ لوبى عند أعالى نهر فـولتا •

٤ ــ أشانتى داخل جمهورية غانة الحديثة •

وفى هذه الاقاليم وغيرها يستبدل الملح بالذهب لعدم وجود الملح بها عن طريق التجارة الصامتة[٤٩] •

---

(٤٧) ليفى بروفنسال ، سلسلة محاضرات عامة فى أدب الاندلس وتاريخها القاها عامى ١٩٤٧ ــ ١٩٤٨ ، ترجمها د . محمد عبد الهادى شعيرة ، د . عبد الحميد العبادى ، مطبوعات كلية لاداب ، جامعة فاروق الاول ، ١٩٥١ ، ص٦١ ؟

(٤٨) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٩٨ . وعن سجلماسة انظـر ايضا : ابن عذارى ، البيان ج ١ ، ط بيروت ١٩٤٨ ، ص ٥٦ .

(٤٩) د . ابراهيم طرخان ، المرجع السابق ص ٦٥ . انظر الملحق رقم ١٧

ورغم وجود هذا المعدن وثراء مالي الذى اكتسبت به شهرة تجاوزت بلاد المغرب الى أوربا الى حد أن بعض الكتاب كتب يقول : « لا يوجد هناك شعب أثرى من المندنجو فى الذهب والفضة .. »[٥٠] .

وكان الذهب فى مالى سهل الاستخراج لكثرة توفره قريبا من سطح الارض ، وقد استخدم سادات مالى رعاياهم الوثنيين فى أعمال الحفر والتنقيب لمهارتهم فى ذلك العمل . وارتبط استخراج الذهب بمحاولة انتشار الاسلام بين هؤلاء العمال الذين كانوا يتوقفون أحيانا عن العمل فى هذه المناجم ، لذلك يتسامح سادة مالى معهم حتى يضمنوا استغلال مناجم الذهب لكونه المصدر الرئيسى لثروتهم وتجارتهم[٥١] .

ولذهب مالى أهمية كبرى فى علاقاتها مع المغرب والمشرق على السواء ويتضح ذلك من المرحلة التى قام بها كنكن موسى ملك مالى عام ٧٢٤هـ — ١٣٢٤ م للحج فبهر به مصر والحجاز بل والعالم الاوربى . ومهما كانت أسباب ذلك الحج وتلك الرحلة[٥٢] ، فقد سلك الملك المالى طريقه عبر طريق القوافل الغربى من منحنى النيجر الى المغرب عن سجلماسة ومنها الى مراكش ثم الطريق الشمالى عبر جبال الاطلسى الى تونس مما أتاح للتجار الاوربيين مشاهدة هذا الموكب وهو فى طريقه الى القاهرة[٥٣] . ولقد تعددت

---

(٥٠) — Bovill, E.W.; The Golden Trade of the Moors, London, 1961. pp. 194—5.

ويفسر د . طرخان معنى شعب المانديجو فيقول : « تنقسم الى ماندى بمعنى السيد أو مركز أقامة السيد أو العاصمة ومعنى آخر أن ما — الام ، ودنج — الطفل ، فبذلك يكون ابن الام ، وذلك له أهمية فى النسب الى الام لدى هذا الشعب . نفس المرجع ، ص ٢٧—٢٩ .

(٥١) — Bovill, Op. Cit., p. 87.

(٥٢) د . طرخان ، المرجع السابق ، ص ٧٩ .

(٥٣) د . طرخان ، نفسه ، ص ٨١ .

الروايات بشأن أحمال الذهب التى صاحبت هذه الرحلة فى طـريقها الى مصر • ويعبر ابن خلدون عن ذلك بقوله : « ان منسا موسى كان قد أعـد لنفقته من بـلاده ، فيما يقال مائة حمـل من التبر فى كل حمـل ثـلاثة قناطير »(٥٤) •

وقد استقبل الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر تلك القافلة بحفاوة بالغة عند وصولها ، وعهد السلطان الناصر محمد الى المهندار أبى العباس أحمد بن على الخاقانى لمرافقته خلال اقامته بالقاهرة ، وقـد لاحظ هـذا المهندار كميات الذهب الكبيرة التى كان ينقلها ملك مالى فقال : « لم يترك — أى منسا موسى — أميرا ولا رب وظيفـة سـلطانية ، الا بعث اليـه بالذهب »(٥٥) •

وقد رد سلطان مصر على تدفق هذه الكمية الضـخمة من الذهب فى القاهرة بهدية حافلة تتمثل فى : « طرد وحشى على مفرج اسكندرى ، وكلوته زركش ، وكلاليب ذهب ؛ وشاش بحـرير ورقم خليفتى ومنطقـة ذهب مرصعة ،وسيف محـلى ، منديل مـذهب خـزوفرسين ملجمين مسرجين وأعـلام »(٥٦) •

---

(٥٤) ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٤٣٤ .

(٥٥) المقريزى ، الذهب المسبوك فيمن حج من الخلفاء والملوك ، نشر د . جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ١١٢ .

(٥٦) طرد وحشى : هو نسيج كان يعمل بدار الطراز بالاسكندرية ويزدان بدوائر أو رسوم بداخلها صور تمثل مناظر لصيد الوحوش . والمفـرج السكندرى : هو نوع من النسيج الرقيق المذهب تصنع منه الطرح والكلوتات المزركشة بالكلاليب . أى القلانس المطرزة بأبازيم محاطة بحافة القلانس . والشاش بحرير : هو نسيج حريرى ممزوج بالذهب وهو نفسه المنمر . ورقم خليفتى : أى مكتوب على هذا النسيج القاب الخليفة بالحرير الباهر الملون . ومنطقة ذهب مرصعة : أى حزام من الذهب المرصع بالاحجار الكريمة .

وشجعت كميات الذهب الوفيرة التى تدفقت على القاهرة الحركة التجارية فى مصر حتى أن أحد التجار المصريين باع لاحد أتباع منسا موسى ثوبا بخمسة دنانير وهو لا يساوى أكثر من دينار واحد . ولقد بهرت الاثواب المصرية الجميلة وحسانها أتباع منسا موسى فأقبلوا على الشراء حتى انخفضت قيمة الذهب وسعره لكثرة سيولة الذهب فى أيادى التجار واغراق الاسواق بالذهب السودانى ، ولم يرتفع سعره الا بعد سنوات عدة(٥٧) .

وشمل هذا البذخ السودانى البلاد المشرقية خاصة الحجاز فى موسم الحج ويعلق السعدى على صدقات الملك المالى فى الحجاز : « .. ومع قوته واتساع ملكه ، لم يتصدق فى الحرمين بأكثر من عشرين ألف ذهب ، مع أن اسكيا الحاج محمد ، ملك سنغى تصدق بمائة ألف ذهب »(٥٨) . وتكررت له — منسا موسى — التكرمة والعطاء فى طريقة العودة أيضا وفى ذلك يقول المقريزى : « وأنعم عليه السلطان بخيول وجمال »(٥٩) .

وبجانب شهرة مالى فى الذهب كانت تتميز بخصوبة أراضيها ووفرة

---

انظر : ل . ا . ماير ، الملابس المملوكية ، ترجمة صلاح الشيتى، مراجعة وتقديم ، د . عبد الرحمن فهمى أسماعيل ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٢٧ ، ٣٨ ، ٥١ — ٥٣ ، ٩٩ — ١١٤ . انظر أيضا : ديماند ، الفنون الاسلامية ، تقديم : د . أحمد فكرى ، ص ٢٥٠ . راجع أيضا : د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٥٢٦ — ٥٢٨ .

(٥٧) د . طرخان ، المرجع السابق ، ص ٨٤ .

(٥٨) عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدى ( ت بعد عام ١٦٥٥ م ) : تاريخ السودان حققه ونشره : هوداس وينوا ، باريس ١٩٠١ ، ص ٧ .

(٥٩) المقريزى ، الذهب المسبوك ، ص ١١٣ . أنظر أيضا :

— Davidson, B.; Old Africa Rediscovered, London, 1959, p. 91.

محاصيلها الزراعية وكثافة سكانها[٦٠] .

وقد وصلت الى السودان الغربى والاوسط بفضل علاقات مالى التجارية معها كميات وفيرة من حبوب مصر وخضرواتها وحيواناتها المستأنسة ، مثل الثور والغنم والماعز والحمار النوبى المستأنس والدجاج المستأنس ومن الخضروات والحبوب القرع والقلقاس والفول والبازلاء والذرة العويجة أو الدخن[٦١] .

واستوردت مالى من المشرق أيضا المصنوعات المختلفة مثل السيوف الدمشقية والحرير كما استوردت الثياب المصرية والخيول بكميات كبيرة[٦٢] . ولزيادة حجم التجارة التى شغلت سكان مدينة تكدة المالية — احدى ولايات مالى — يقول الرحالة ابن بطوطة : « شغلتهم التجارة ، يسافرون كل عام الى مصر ويجلبون كل ما بها من حسان الثياب »[٦٣] .

ومدينة تكدة — وهى أكرا — من مدن مالى الهامة ، وهى مركز تجارى رئيسى فى طريق القوافل وتقع بين جاو وأير على طريق الحج عبر الصحراء ، كانت على علاقة وثيقة تجارية مع ورقلة ومع مصر ، ويذكر أن هناك قافلة خرجت من مالى العاصمة نحو مصر عن طريق تكدة بلغ تعدادها ١٢ ألف جمل . واستوردت مصر النحاس من مالى كما استورده المغرب أيضا[٦٤] .

ولما كانت للذهب أهميته فى التجارة المشرقية المغربية ، كانت للملح

---

(٦٠) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٢٨٢ .
(٦١) د . طرخان ، دولة مالى ، ص ١٣٧ .
(٦٢) أ. شيبالد لويس ، القوى البحرية ، ص ٢٦٠ — ٢٦٣ .
(٦٣) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ٤ ، ص ٤٣٩ . انظر ايضا :
Bovill, Op. Cit., p. 128.
(٦٤) Bovill, Ibid.

أيضا تجارته الرابحة ، ويصف ابن بطوطة فى رحلته ضخامة كميات الملح الموجودة فى مناجم تغازة فيقول : « .. قرية لا خير فيها ، ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح ، وسقوفها من جلود الجمال،ولا شجر فيها انما هى رمل فيه معدن الملح ، يحفر عليه فى الارض ، فيوجد فيه ألواح ضخام متراكبة ، كأنها قد نحتت ووضعت تحت الارض ، يحمل الجمل منها لوحين ، ولا يسكنها الا عبيد مسوخة — احدى قبائل البربر — ويتعيشون بما تجلب اليهم من تمر درعة وسجلماسة ، ومن لحم الجمال . ويصل السودان من بلادهم الى تغازة ، فيحملون منها الملح ويباع الحمل منه فى ايوالاتن عشرة مثاقيل الى ثمانية مثاقيل ، وبمدينة مالى بثلاثين مثقالا الى عشرين ، وربما انتهى الحمل الى أربعين مثقالا »[٦٥] . ويبالغ ابن حوقل فى ذكر ثمن حمل الملح فيذكر أن حمل الملح بلغ فى بعض بلاد السودان الاخرى فى غربى افريقية ما بين ٢٠٠ الى ٣٠٠ مثقال أو دينار[٦٦] .

ويضيف ابن بطوطة أن الملح كان عمله يتصارف ويتعامل بها أهل السودان كما يتصارفون بالذهب والفضة ، يقطعونه قطعا ويتبايعونه ، ويذكر أن قرية تغازة على حقارتها كان يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر[٦٧] .

وعن هذا الطريق التجارى ومدنه يتحدث البكرى عن سلجماسة وسكانها فيقول : « ومن الغرائب عندهم أن الذهب جزافا عدد بلا وزن ، والكراث يتبايعونه وزنا لا عددا »[٦٨] . وفى حديثه عن مدينة أودغست كمركز تجارى شهيرة فى الذهب والملح والعبيد يقول : « .. ويتجهز الى

---

(٦٥) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ٤ ، ص ٣٧٧ — ٣٧٨ .
(٦٦) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٩٨ .
(٦٧) ابن بطوطة ، نفس المصدر .
(٦٨) ابن حوقل ، نفس المصدر ، ط دى سلان ، الجزائر ، ١٨٥٧ ، ص ١٧١ .

أودغست بالنحاس المصنوع وبثياب مصبغة بالحمـرة والزرقة مجنحة ، ويجلب منها العنبر المخلوق الجيـد لقرب البحـر المحيط منهم ، والذهب الابريز الخالص خيوطا مفتولة • وذهب أودغست أجود ذهب أهل الارض وأصحه » • ويضيف : « انه كان للرجل الواحـد من سكانها ألـف خادم وأكثر »[٦٩] •

وكان لسكان السودان طريقة خاصة فى التعامل مع التجار الاجانب سبق أن عرفناها بالتجارة الصامتة[٧٠] ، عرضها المسعودى فيقول : « أن فن البيع والشراء فيما كان وراء سلجماسة من أرض المغرب ومثلها بأقاصى خراسان قوم يبتاعون من غير مشاهدة ولا مخاطبة ، فيتركون عند كل متاع ثمنه أعمدة من الذهب ، فاذا جاء صاحب المتاع اختار الذهب وترك المتاع ، وان شاء أخذ متاعه وترك الذهب »[٧١] •

وقد تعدى أثر حركة تجارة الذهب هذه على البلدان الاسلامية المارة بطريقها من المغرب غربا الى مصر والحجاز شرقا لتشمل الحركة النقـدية نفسها • فمع تدفق الذهب والفضة كانت الدورة النقدية عادة مـرضية • وكان نضوب الذهب يتسبب غالبا فى كارثة اقتصادية تظهر فى قلة العملات الجيدة وتغيير سعر العملة ووزنها ومن ثم تقع حالات غش وكساد وقـد يؤدى الامر الى أزمات اقتصادية أو مجاعات تعم بلاد المغـرب والمشرق على السواء •

ويذكر القلقشندى عن مسالك الامصار : « أن معدل سـعر القمـح ٥٠ درهما لكل قفيز وأن الشعير كان أرخص » ويضيف : « أنه كثيرا ما يكون

---

(٦٩) ابن حوقل ، نفس المصدر ، ص ١٥١ ، ١٥٩ .
(٧٠) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٩١—٩٢ .
(٧١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٩٢—٩٣ .

الرطل الافريقى من لحم الضأن بدرهم ، ويرخص اللحم فى الربيع ، وتباع الدجاجة الطيبة بدرهمين جديدين »[٧٢] . كما يظهر من كلام القلقشندى أن ظروف العيش فى افريقية كانت مماثلة لمصر والمغرب لقرب البلدين وتأثرهما بطريق التجارة المذكورة .

وكان أساس العملة الموحدية الدينار الذهبى والدرهم الفضى وربما استعمل المثقال الذى له نفس وزن الدينار ، وكذلك الاوقية التى لها نفس وزن الدرهم[٧٣] .

وقد عرف الموحدون صرف العملة من نصف الدرهم والربع والثمن والخراريب . ويتضح لنا ذلك مما أورده عبد الواحد المراكشى فى حديثه عن وفادة صاحب بجاية — يحيى بن عبد العزيز الصنهاجى — الى مراكش يقول : « .. ان يحيى بن عبد العزيز كان فى مجلس عبد المؤمن يوما فذكروا تعذر الصرف فقال يحيى : أما أنا فعلى من هذا كلفة شديدة وعبيدى فى كل يوم يشكون الى ما يلقون من ذلك ويذكرون أن أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف . وذلك أن عاداتهم فى بلاد المغرب يضربون أنصاف الدرهم وأرباعه وأثمانها والخراريب فتستريح الناس فى هذا ، أو تجرى الصروف فى أيديهم فتتسع بيعاتهم . فلما قام يحيى بن العزيز من ذلك المجلس أتبعه عبد المؤمن ثلاثة أكياس صروف كلها وقال لرسوله : « قل له لا يتعذر عليك مطلوب ما دمت بحضرتنا ان شاء الله عز وجل »[٧٤] .

وكانت هذه العملة الموحدية سواء من الفضة الخالصة أو الذهب الابريز الطيب يتعامل بها الاندلس ، وكان الدرهم مربع الشكل تزن الاوقية

---

(٧٢) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ١١٥ .
(٧٣) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٦٥ .
(٧٤) المراكشى ، المعجب ، ص ١٢٤ .

منه سبعين درهما مع اختلاف الكتابات عليه[٧٥] .

وهناك وصف لاوجه الصرف فى الدولة الموحدية وبصفة خاصة فى عهد يعقوب المنصور ، ففى احدى احتفالاته بالنصر كان يقوم بتوزيع الاكسية أو الاعطيات أو ما يسمونها البركة الحافلة من الذهب والدراهم ، ويذكر ابن صاحب الصلاة أنه كان يقدم : « لكل فارس عشرون دينار والاعيان الموحدين وأشياخهم لكل واحد مائة دينار ، ولاشياخ العرب لكل واحد مائة دينار ، ولساير عساكر العرب عشرون دينار لكل فارس »[٧٦] .

والمقصود بهذا الدينار هو الدينار اليعقوبى حسب ما ذكره الاستاذ التازى محقق ( كتاب المن ) ، ومع صعوبة اعطاء معادلة مضبوطة لمقدار الدينار فانه قياسا على ما ذكره لويس ماسينون كان الدينار الموحدى يزن بالذهب ٤٫٧٢٩ جرام ( أى بزيادة ٧٠٤ جرام على الدينار الشرعى )[٧٧] .

## (ج) تجارة الرقيق :

وتأتى عبر المسالك تجارة الرقيق التى ظهرت كنتيجة متزايدة للايدى العاملة فى المناجم والصناعات المعمارية المتعددة . وكان حل مشكلة الايدى العاملة ينم عن طريق الاستكثار من الرقيق ، على الرغم من أن الاسلام حرم الرق ودعا الى المساواة فى الحقوق بين المسلمين ولا فرق بين عربى

---

(٧٥) ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عنان ، ص ١٤٣ .

(٧٦) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٢٩٢ .

(٧٧) — Luis Massignon; Le Maroc dans les Premières années du XVI Siècle, Paris 1906 pp. 102—3.

انظر أيضا : ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٥٢ وأيضا : دائرة المعارف الاسلامية النشرة الفرنسية ١٩٦٢ ، فصل دينار ، ج. ميلز G. Miles ، ج٢ ، ص ٣٠٥—٣٠٦ . أنظر أيضا : محمد الصبحى ، انبلاج الفجر عن المسائل العشر ، ط الرباط ١٩٤٠ ، ص ٩—١٨ .

على أعجمى الا بالتقوى ، وقضت القوانين الاسلامية فى غالبيتها على عتق الرقيق فتناقصت أعدادهم ، وكان اقتناء الرقيق يتم عن طريق الاغارة على البلدان المجاورة أو عن طريق الشراء • واشتهرت مناطق ثلاثة بجلب العبيد وتزويد المسلمين بما يحتاجونه منه :

١ ــ منطقة أوربا الشرقية والوسطى ( الصقالبة ) ومن أكبر تجارهم البنادقة الذين كانوا يصدرون أعداد كبيرة منهم الى العالم الاسلامى الشرقى والغربى(٧٨) •

٢ ــ بلاد الترك التى أمدت الدولة الاسلامية بالجنود والمرتزقة(٧٩) •

٣ ــ بلاد السودان أو الزنوج وهى المنطقة المدارية لحزام السافاند الافريقية • وكان عبيد تلك المنطقة مرغوبا فيهم لاتقانهم الاعمال المنزلية، ومناطقها القديمة مثل النوبة والحبشة ، وسواحل افريقيا الشرقية ، وحديثة مثل السودان • وأصبحت بلاد السودان المصدر الاول لتجارة الرقيق ابتداء من القرن ٤هـ •

وقد ازداد استخدام العالم الاسلامى للرقيق بعد التوسع التجارى المعتمد على أنواع العملات الذهبية بوجه خاص حتى أن استيراد العبيد لم يقتصر فقط على الامراء والاسرات الحاكمة أو الدولة ، بل تعداها الى الطبقات الاجتماعية الثرية خاصة التجار لما تحتاجه من عمال وحراس ، فأصبح العبيد القوة المنتجة الاساسية فى جميع الميادين الاقتصادية •

---

(٧٨) د. مختار العبادى ، الصقالبة فى أسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية: مدريد ١٩٥٣ ، ص ٨ــ١٠ .

(٧٩) د. مختار العبادى ، قيام دولة المماليك الاولى فى مصر والشام : بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٣٤ــ٦١ .

ولاهمية هذه التجارة خصص لها أسواق فى المدن الاسلامية ، وعرفت هذه الاسواق باسم — سوق البركة — كما هو فى تونس • وقام عليها وسطاء كما سبق الذكر خاصة من الاوربيين النصارى واليهود • وتصدرت البندقية وتجارها النخاسة الاوربية ، التى تنقلها الى موانى شرق البحر المتوسط [٨٠] •

أما أهم مصادر الرقيق فى بلاد المغرب فمن أفريقيا السوداء ، وكانت تجارة الرقيق مربحة لا سيما اذا كان الرقيق قوى البنية سليم الحواس[٨١] • ويذكر الاصطخرى الرقيق السود فى جملة صادرات المغرب والاندلس الى الشرق الاسلامى : « والذى يقع من المغرب الخدم السود من بلاد السودان والخدم البيض من الاندلس والجوارى المثمنات ، تأخذ الجارية والخادم من غير صناعة على وجوهها بألف دينار وأكثر ، تقع منها اللبود المغربية والبغال للسرج والمرجان والعنبر والذهب والعسل والزيت والسفن والحرير والسمور »[٨٢] •

وقد راجت أسواق النخاسة رواجا تعبر عنه الدراسات الاحصائية لتجارة الرقيق حتى نهاية القرن ١٥م فوفقا لهذه الاحصاءات بلغ عدد الرقيق نحو ٩٠٠ ألف عبد[٨٣] ، وان اختلف فى تقدير عددهم ، ويسجل فيليب كورتين Philip D. Curtin عدد العبيد المصريين من أفريقيا الى أوربا فى الفترة من عام ١٤٥٨ الى ١٤٦٠ يتراوح ما بين ٧٠٠ الى ٨٠٠ عبد سنويا • ومن عام ١٤٥٠م الى ١٥٠٠م الى ٣٥ ألف عبد[٨٤] •

---

(٨٠) — R. Oliver, Ibid.

(٨١) — Philip D., Curtin; The Atlantic Slave Trade, London, 1969, pp. 16—19.

(٨٢) السفن هو جلد خشن غليظ كجلود التماسيح يكون على قوائد السيوف . أنظر : الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ص ٣٧ .

(٨٣) — R.R. Kuczynski; Population Movements. Oxford, 1936, p. 12.

(٨٤) — Philip D. Curtin, Op. Cit., p. 17.

وقد حاول ملوك السودان عرقلة تجارة الرقيق والتضييق على النخاسين المغاربة الامر الذى دعا حكام المغرب الى توجيه لون من العتاب الى حكام السودان ، ويتمثل ذلك فى رسالة مؤرخة من الامير أبى الربيع سليمان الموحدى جاء فيها : « نحن نتجاور بالاحسان ، وان تخالفنا فى الاديان ، ونتفق على السيرة المرضية ، ونتألف على الرفق بالرعية ، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك فى حكم السياسة الفاضلة ، والجور لا تعانيه الا النفوس الشريرة الجاهلة • وقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده ، وتردد الجلابة الى البلد مفيد لسكانها ومعين على التمكين من استيطانها ، ولو شئنا لاحتبسنا من فى جهتنا من أهل تلك الناحية ، لكنا لا نستصوب فعله ، ولا ينبغى أن ننهى عن خلق ونأتى مثله والسلام »[٨٥] •

## ( ٣ )

## التنظيمات التجارية الموحدية والحفصية

اقتضت العلاقات الجارية القائمة بين الغرب من ناحية والغرب الاسلامى من ناحية أخرى وبينهما وبين المشرق الاسلامى بوجه عام ، تنظيما لوجوه المعاملات المالية والتجارية • ولذلك عرفت الثغور الموحدية شأنها فى ذلك شأن الثغور المشرقية الاسواق المسورة ، والفنادق التجارية ( الوكالات ) والدواوين الجمركية • ويمكننا أن نقف على الاطار التنظيمى الموحدى لوجوه المعاملات التجارية والمالية والادارية المتصلة بحركة التجارة داخل الاراضى التابعة لهم من خلال ما ورد فى الرسائل الموحدية التى سبق الاشارة اليها •

---

(٨٥) جنون ، النبوغ المغربى ، ج٢ ، ص ١٠٦ .

فهناك كتب الامان التى أصدرتها الدولة الموحـــدية من تونس والتى شجعت التجار على الوفود اليها والاشتغال بالتجارة فيها • ويتمثل ذلك فى نص احدى هذه الرسائل التى نطالع فيها : « ••• من عثمان الترجمان فى تونس الى بانش ابن كرسى يعلمك أنه قد عز على كثير لم تكن حاضر حتا نخلص لك رحلك •• ولكن تجى أن أرات فما ترا الا خير ولا تفزع لا أنت ولا كل من يجى معك فان ما تروا الاخير • والســـلع رخيصة وكل ما تريد بعمل لك وكل من خلا من أصحابك فى تونس شىء فيجى يأخذه وما يمر لاحد شىء ، وان أراد سعير وقرسطان واكرييسان المجى فيجوا فما يعمل معهم الاخير • وأن الشيخ أبو الحجاج وصل الى تونس وهو صاحب الديوان وما يعمل معكم ومع غيركم الا خير فلا تخاف من أحد »(٨٦) •

وأبرز الشخصيات المنظمة للحركة التجارية فى الثغور الوكيل التجارى، وتؤكد بعض الرسائل أن الوكيل كان يتولى أيضا حصر التجـــار الاحياء والاموات منهم على السواء لمعرفة ما عليهم من ديون وما لهم وتعبر نصوص احدى الرسائل عن ذلك : « •• بحضور وكيل البيشانيين وهو قســـوم فى مدينة تونس حيث قال : فنحب منك أن تفحص عن أصحابى من مات منهم ومن هو حى •• قد اتخذ عندى وما بقى لى عنده •• وما لكم كله موقوف ما أخذ منه أحد شيئا »(٨٧) •

ويقوم الوكيل بالاضافة الى عمله المذكور بحل المشاكل التى غالبـــا ما تحدث بين التجار الاوربيين والمغاربة من غش فى التعامل ، أو تهـــرب

---

(٨٦) ميشيل أمارى ، مجموعة الرسائل ، رسالة رقم ١٦ ، ص ٥٣ــ٥٤ وهى غير مؤرخة .

(٨٧) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رســالـــة رقم ١٥ ، ص ٥٢. ورسالة رقم ١٠ ص ٣٦ــ٣٧ . انظر نفس المعنى فى : نجاة باشا ، التجارة فى المغرب الاسلامى ، ص ٥٣ . انظر ايضا :

— R. Lopez, Op. Cit., p. 384—6.

الاوربيين من دفع أثمان ما يقومون بشرائه من التجار المغاربة ، أو بدفع مبلغ قليل فى الديوان لا يوازى قيمة ما اشتراه التجار . فهناك اشارات تحدد أوصاف هؤلاء التجار أمثال : « رجال جياد ، من خيار التجار » من أجل جذبهم لسداد ديونهم للتجار المغاربة عبر كتب مكتوبة موكلة من قبل هؤلاء التجار المسجلين أمثال : « فرسطان ، ففيان ، بلناط كرك ، وألبان »(٨٨) .

ومثل هذه الاعمال اقتضت أن يكون هؤلاء الوكلاء محل ثقة وأهل للامانة الموضوعة فيهم ، لكونهم الواسطة فى حل المشاكل المالية وسداد الديون واجادتهم أسلوب التحاور على أساس أنهم ليسوا فى حاجة الى وصية ولا زيادة فى التأكيد على أداء الامانة والاعتراف بالحق(٨٩) . وعلى حد قول الرسالة المشار اليها من قبل : « فما لكم موقوف على وجه الامانة لم يغير فيه شىء .. وعثمان المهدوى باكرس بادر اليه فى ثمن النحاس فانه مسافر الى الاسكندرية »(٩٠) .

وكما اقتضى حجم هذه المعاملات التجارية قيام الوكيل بوظيفته ، فان استكمال أعمال الوكيل اقتضت أيضا وجود شهود عدول معروفين للاطراف جميعا(٩١) . فضلا عن تراجمة معتمدين لهذه العلاقات ، وكما هو واضح من

---

(٨٨) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ١٩ ص ٦٠—٦٢ .
(٨٩) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ٢٠ ، ص ٦٣—٦٤
(٩٠) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ١٨ ، ص ٥٧—٥٩ . انظر الملحق رقم ١٥
(٩١) من هؤلاء الشهود « محمد بن القاسمى الريعى ، أحمد بن عبد الواحد الرساطى ، عبد الكريم بن عبد المؤمن اللخمى ، حسن بن على الترجمان عثمان بن أبى بكر ، قاسم بن على ، سفيان بن هلال ، أحمد قطران ، وعبد الرحمن بن أبى الطاهى التميمى » . انظر : ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ١٢ ، ص ٤٣—٤٤

نص الوثيقة السابقة فان الامر اقتضى أن يكون هؤلاء معروفين على أوسع نطاق من تونس غربا الى الاسكندرية شرقا • وواضح من التطور الذى طرأ على معنى الترجمة أن صاحبها قد صار له شأن لا يقل عن شـــأن الوكيـــل التجارى ، فبعد تولى الناصر محمد الشيخ أبو حفص امارة تونس ، ظهرت بجاية منفذا تجاريا هاما نافس تونس والاسكندرية فى نطاق حركة التبادل التجارى • وفى هذه المرحلة صار محظورا على التجار فى بلاد المغرب الا اذا كانوا مثبتين فى الديوان أو كما يذكرون « نترجم فى الديوان » • وبناء على هذه الترجمة كانت تكتب لهم عقود تبيح البيـــع والشراء ، بشرط أن تكون هذه العقود مشهود على صحتها ، وموافق عليها من المسئولين ، لانها تسمح لاصحابها فقط أن يدللوا على بضائعهم فى الحلقة التجارية ، ومن ثم الترويج للبضائع الاوربية والمشرقية على السواء ، مما شكل وجها آخر من وجوه حلقة التبادل التجارى فى هذه العلاقات التى لم تخل من الوسيط أو الدليل التجارى المشرقى الشامى والعراقى والمصرى والاوربى من جنوة والبندقية وبيزة وسردانية وقـــبرص والمغـــربى والتـــونسى والطنجى والتلمسانى والبجاوى • ويذكر فى أهمية وجود تلك الدلالة الموثقة : « •• من أحمـــد بن تميم الترجمان ببجاية الى لبنارت غليول الفرناج •• أن تكلم الاشياخ والاعيان أن يكتبوا كتابا للقايد أو السداد موفق بن عبد الله أن نكون كما جرت عوايدكم نترجم فى الديوان وندلل فى الحلقة »(٩٢) •

ولهذا السبب فاننا نلاحظ أنه عندما يتردد ذكر المـــوانى المشرقيـــة المختلفة فى احدى الرسائل الموحدية ، فان الامر لا يرد اعتباطا وانما يدل

---

(٩٢) عن الديوان وأصله المشرقى الفارسى ، فهى كلمة بمعنى ديـــوان الجن ، ودان علامة الجمع ؛ فالديوان هو جمع الجنون . ولا زالت كلمة ديوان بمعنى قمرق موجودة بتونس . أنظر : عثمان الكعاك ، العلاقة بين تـــونس وايران عبر التاريخ ، ص ١٣٦—١٣٧ . راجع : ميشيل أمارى ، نفس المصدر رسالة رقم ٢٥ ، وهى مؤرخة بتاريخ ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م ، ص ٧٥—٧٧ .

دلالة واضحة على الوجود المشرقى فى أكثر من وجـــه من وجـــوه حـــركة التجارة الموحدية • ونلمس ذلك فى رسالة موحـــدية أخـــرى جاء فيهـــا : « •• أقلعنا من بيروت ومعهما بعض البضاعة ، وعبرا على قبرص واشتروا منها باقى بضاعتهم ودخلا الديار المصرية آمانين •• » • ورغم هذه المعاملة الحسنة الا أنهم يعلمون السلطات الحفصية بأنهم مظلومين ويطلبون الرحمة لاطلاق سراحهم وما هم الا عبيد هذه الدولة وداخلين فى طاعتهـــا والرأى لهـــا » (٩٣) •

وورود اسم قبرص فى هذه الرسالة له مغزى هام ، فاذا كانت بيزة قد تصدرت معظم الصلات التجارية فى العهد الاول من الدولة الموحـــدية المؤمنية ، فان جزيرتى قبرص وسردانية ستقومان بدور تجارى هام يرجع اليه أعظم الاثر فى تطور هذه الصلات التجارية ويكمل وحدة البحر المتوسط تجاريا ـــ شرقه وغربه وشماله ـــ ويؤكد العلاقات التجارية الودية بين تلك الجزر والمسلمين العبارة التالية الواردة فى احدى الرسائل : « •• أن يكون مثل غليا لم مركبس المجاور له فى سرادانية فانه لم يعامل المسلمين الابالخير والكرامة ويحسب ذلك أكـــرمناه فيمن يصل من عنـــده ويأتى من جهته ، فاعلموا ذلك واعلموا بحسبه »(٩٤) •

**(ب) الفنادق :**

جرت العادة فى المغرب الاسلامى فى العصر الموحـــدى والحفصى أن ينزل التجار ، سواء من الاوربيين أو المشارقة ، بضـــائعهم فى مستودعات

---

(٩٣) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ٢٣ ، غير مؤرخة ، ص ٧١ .

(٩٤) ميشيل أمارى ، مجموعة الرسائل ، رسالة رقم ٢١ ، مؤرخـــة بتاريخ ٥٩٨ هـ ، ص ٦٥ـــ٦٨ .

كبيرة عرفت بالفنادق ، وكانت البضائع تسجل فى دفاتر خاصة فيسهل تقدير المكوس المقررة عليها بنظام الدلالة السابق الاشارة اليه .

ولم يكن الهدف من انشاء الفنادق[٩٥] فى المغرب يختلف عنه فى المشرق، وكما هو معروف فان مصر قد تصدرت بلدان المشرق فى هذا المجال بسبب موقعها المتميز حسبما سبق الذكر .

ومن أهم فنادق مصر فى تلك الفترة ( وتسمى بالخانات ) الفندق الذى بناه تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين وقد عرف باسم « فندق الكارم » نسبة الى التجار الكارميين[٩٦] المقيمين فى الفسطاط المرسى الرئيسى آنذاك لسفن النيل . وكان سوق العطارين بالاسكندرية المقر الرئيسى لنشاط الكارميين التجارى فى هذا الثغر[٩٧] .

وشهدت الفترة ما بين عامى ٤٩٠—٦٩٠هـ / ١٠٩٦—١٢٩١م تزايد فى حركة التبادل التجارى بين مصر والشام مما اقتضى انشاء المزيد من الخانات المخصصة للتجار الشاميين والعراقيين القادمين الى مصر أو العائدين منها الى الشام[٩٨] .

وكان من الطبيعى أن يترتب على رواج حركة التجارة المشرقية ازدهار

---

(٩٥) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ٢٩ ، مؤرخة بتاريخ ٧١٣ هـ ، ص ٨٦—٩٧ وعن هذه الفنادق انظر أيضا : د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٥٠٥—٥٠٦ . د . سالم : التخطيط ومظاهر العمران فى العصور الاسلامية الوسطى ، مجلة المجلة ، العدد ٩ ، ١٩٥٧ ، ص ٥٧ .

(٩٦) هم تجار مسلمون ، ظهروا لاول مرة فى القرن الخامس الهجرى ١١ م ) وكانت لهم مكانة خاصة فى المجتمع التجارى الاسلامى ، وقد تميز الكارمية بالكفاءة والمجازفة فى المشروعات التجارية الكبرى . انظر : د . سالم تاريخ الاسكندرية ؛ ص ٥٠٦—٥٠٩ ، ٥١٩—٥٢٠ . ( انظر عنهم : عادل ابراهيم يعقوب ، التاريخ الاقتصادى للشرق الاوسط ، ص ٤١ ) .

(٩٧) د . عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٥١٩—٥٢٠ .

(٩٨) عادل ابراهيم ، المرجع السابق ، ص ٤٧ .

عمرانى واقتصادى لمدينة مكة المكرمة وميناؤها جدة لا سيما فى المناسبات الدينية ، ومن ثم دخل التجار المغاربة طرفا فى هذه الحركة التجاريةووجوه نشاطها الاقتصادى • كذلك تعددت الفنادق التجارية فى بلدان المغرب بحكم تعدد الاسواق التى عرفتها مراكزها الاقتصادية منذ القدم • فيذكر البكرى أسواق سوسة وأسعارها المعتدلة(٩٩) • وما كان فى تلك الاسواق من مؤسسات تجارية يزدحم فيها تجار البلد والتجار المتنقلون(١٠٠) • كما ذكر البكرى أيضا أسواق أودغست وتجارتها المزدهرة : « يجتمع فيها خلق عظيم فلا يكاد يسمع فيها المرء صاحبه لكثرة اللغط والغوغاء »(١٠١) •

ومن أسواق المغرب المعروفة سوق أغمات وريكة وكان ينعقد يوم الاحد وسوق أصيلة يوم الجمعة • كما كانت تقام فيها ثلاث أسواق موسمية احداها ضيلة شهر رمضان والثانية فى العاشر من ذى الحجة أى يوم عيد الاضحى والثالثة يوم عاشوراء ، فيؤمها التجار من كافة أنحاء البلاد وينصبون خيامهم ويعرضون فيها بضائعهم الى أن أنشئت بالتدريج أبنية خاصة تتجمع فيها مؤسسات تجارية هامة(١٠٢) •فاذا بالاسواق نفسها تمثل مدينة صغيرة عتيقة مزودة بأبواب ومتاريس تغلق ليلا وتفتح نهارا ، ومما يذكر بهذه المناسبة أن الحفصيين كانوا لا يسمحون باقامة أسواق دباغة أو صباغة أو صناعة الحياكة الرائجة داخل المدينة تفاديا للروائح الكريهة التى تنبعث منها ، فكانت أسواق الدباغين والصباغين تقام عادة خارج المدينة(١٠٣) •

---

(٩٩) البكرى ، المسالك ، ص ٣٤ .
(١٠٠) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ١٠٣ .
(١٠١) البكرى ، المصدر السابق ، ص ١٥٨ .
(١٠٢) نجاة باشا ، المغرب الاسلامى ، ص ٥٤—٥٥ .
(١٠٣) محمد الهادى العامرى ، تاريخ المغرب العربى ، ص ١٧١ .

**(ج) العمـــلات :**

أما فيما يتعلق بالعملات المتداولة فى الاسواق فقد كان أساس النقد المـوحدى الدرهم المربع الذى سكه المهدى محمد بن تومرت وكانت نقوشه على النحو التالى :

**الوجه الاول :**

الله ربنـــا

محمـد رســولنـا

المهـــدى امامنـا

**وعلى الوجه الآخـر :**

لا اله الا الله

الامـر كلـه لله

لا قـــوة الا بالله[١٠٤] .

ويأتى عبد المؤمن بن على خليفة المهدى ليغير من الدرهم الفضى الى الدينار الذهبى ، ومن الشكل المربع الى المستدير ، وان لم يلغ التربيـع نهائيا[١٠٥] . وكان نقوش الدينار على النحو التالى :

**الوجه الاول :**

فى حافة الدائرة : أبو محمد عبد المؤمن بن على أمير المؤمنين .

وفى داخل المربع الصغير : المهدى امام الامة الاسلامية بأمر الله .

وفى داخل المربع الكبير على الحافة العليا والسفلى : اسم المدينة .

---

(١٠٤) ملحق رقم ١٨ .

— Rachid Bourouiba; Abd El Mu'min, p. 77—9.

(١٠٥) د . حسن حسنى عبد الوهاب ، النقود العربية فى تـونس ، تونس ، ١٩٥٨ ، ص ٣٥ .

**وعلى الوجه الآخـــر :**

فى حافة الدائرة : باسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على محمـــد وعلى آله وسلم تسليما •

وفى داخل المربع الصغير : لا اله الا الله محمد رسول الله •

وفى داخل المربع الكبير على الحافة العليا والسفلى : اسم المدينة(١٠٦)

واقتدت الدولة الحفصية منذ البـــداية بسنن الموحـــدين فى ســـك مسكوكاتهم شكلا وكتابة ولم يشذ عنها الا أواخر أمرائها اذ أنهم قـــلدوا ـــ آخر القرن العاشر الهجرى ـــ نقود الاتراك العثمانيين(١٠٧) •

وجاءت نقوش الدينار الحفصى على عهد أبو زكريا يحيى على النحو التـــالى :

**الوجه الاول :**

الطوق : الامير الاجل ـــ أبو زكريا يحيى ـــ ابن أبى محمـــد ـــ ابن أبى حفص •

الوسط : المهدى امام

---

(١٠٦) أنظر الملحق رقم ١٨ وأنظر :

— Luis Massignon; Le Maroc, p. 102—3.

وراجع أيضا ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٢٩٢ . محمـــد الصبيحى ، أنبلاج الفجر ، ص ٩—١٨ . وأنظر أيضا :

— Rachid Bourouiba, Abd El-Mu'min pp. 77—97.

وأنظر أيضا لنفس المؤلف :

— Six Dinnars Almohades Trouvés a La Qalà des Bani H'ammâd. Bulletin d'Archéalogie Algérienne. Tom II, pp. 271—291.

وأيضـــا :

— Monnaies et Bijoux Trouvés a La Qalà des Bani H'ammâd. Actes du II' Congrès d'Etudes Nord-Africaines, 1970, pp. 67—77.

(١٠٧) د . حسن حسنى ، النقود العربية فى تونس ، ص ٣٥ .

الامـــة القـــائم
بأمـــر الله
والوجه الآخـــر :

الطوق : باسم الله الرحمن الرحيم ــ صلى الله على محمد ــ وعلى آله •• وسلم تسليما

الوسط : لا اله الا
الله محمـــــد
رســـــول الله

ورغم استدارة الدينار فان الكتابة الطوقية ، حشرت فى مربعات تشبه كوشات العقود ، ولم تذكر التاريخ ، وتذكر أحيانا أسماء المدن(١٠٨) •

ولمـــا وصلت بيعة مـــكة الى المستنصر الحفصى فى ســـنة ٦٥٧هـ ــ ١٢٥٨م نراه يرسم على دينارة المسكوك فى تونس ما يلى :

**الوجه الاول :**

**الطـــــوق :**

المؤيد ــ بنصر ــ الله ــ المنصور ــ بفضل الله ــ أمير المؤمنين •

**الوســـط :**

أبو عبد الله محمـــد •
بن أمير المـــؤمنين •
تونس •

**والوجه الآخـــر :**

**الطـــوق :**

---

(١٠٨) د . حسن حسنى ، نفسه ، ص ١٤٠ــ١٤١ .

بسم الله الرحمن الرحيم — صلى الله على سيدنا محمد — لا اله الا الله — محمد رسول الله .

**الوسط :**

المهدى خليفة .

الله الشكر لله .

والحول والقوة بالله[١٠٩] .

وقد ظهرت فى القرنين السادس والسابع للهجرة مشكلة أمام المدن التجارية الاوربية تخص قيمة الدينار لما يعترضه من ارتفاع مستمر بالمقارنة بالعملات الاخرى[١١٠] . وأمام تلك المشكلة حاولت الدولة ضرب أنواع أخرى من العملات منها المزيف أو ضرب أنواع غير جيدة من العملات أثارت ثائرة الناس فتراجعت أمامها السلطات ، وهذا ما حدث فى تونس عام ٦٦٠هـ — ١٢٦٢م عندما ضربت الحناديس أى الفلوس النحاس التى ألغت فى شوال من نفس السنة[١١١] .

---

(١٠٩) د . حسن حسنى ، النقود العربية ، ص ١٤٣ .

(١١٠) المعروف أن لفظ Mancus الذى أطلق على العملة الذهبية القديمة المتداولة فى التعاملات الايطالية والفرنسية والاسبانية تعنى العملة بصفة عامة والدينار العربى بصفة خاصة . وقد ظل تجار المسلمين يتعاملون بالدينار الذهبى رغم اختلاف أوزانه حتى العهد المرابطى ، وقد أدى التزام المسلمين فى معاملاتهم التجارية بالدينار الى اقدام الدول التجارية الاوربية منذ بداية القرن ١١ م ( ٥ هـ ) على سك عملات ذهبية فى اسبانيا المسيحية . فكان هناك الدينار القشتالى والليونى والبرتغالى . ثم انتشر نظام العملات الذهبية من اسبانيا الى جنوب ايطاليا وصقلية . أنظر :

— Gabriel Le Bras, C.E.H. of E., p. 586—589.

(١١١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٦٦٧ — ٦٦٨ وعن هذه الحناديس يقول د . حسن حسنى : « واستحدث السلطان ( المستنصر بالله الاول ) سكة من النحاس مقدرة على قيمته من الفضة حاكى بها سكة الفلوس بالمشرق ، تسهيلا على الناس فى المعاملات .. ولما لحق سكة الفضة من غش اليهود المتناولين لصرفها وصوغها . وسمى سكته التى

وأدى نقص العملة الذهبية ( كما حدث فى سنة ٥٧٧هـ — ١١٨١م ) الى ظهور تغييرات متكررة فى النظام النقدى [١١٢] ، لذلك ، كان الالتجاء الى العملات الاجنبية التى تعوض الدينار الاسلامى . فظهرت فى عام ٦٥٠هـ — ١٢٥٢م فى جنوة العملة الجنوية المذهبة ، وفى نفس السنة ظهر الفلورين الفلورنسى ، وكان وزنهما ٣٫٥٠ جرام وهما يعتبران أكثر وزنا من وزن الدينار الموحدى الذى كان يزن ٢٫٣٢ جرام بالمقارنة بالدينار المرابطى الذى كان يزن ٣٫٨٨ جرام ، وكلها من الذهب الخالص ، هذا بالاضافة الى الدوكا البندقى والبيزنت البرشلونى [١١٣] .

وكان انخفاض قيمة الدينار منذ القرن ٤هـ ( ١٠م ) واختلاف وزنه وعياره بحسبه المكان والزمان سببا فى استخدام العملة الجنوية بكثرة خاصة فى شرق البحر المتوسط وغربه . والى جانب الدينار ظهر الدرهم

---

استحدثها ( بالحندوس ) يعنى السوداء . ثم افسدها الناس بالتدليس وضربها أهل الريب ناقصة فى الوزن ، وفشا فيها الفساد ؛ واشتد السلطان فى العقوبة عليها ، فقطع وقتل ، وصارت ريبة لمن يتناولها ، وأعلن الناس النكير فى شأنها وتنادوا بالسلطان فى قطعها ، وكثر الخوض فى ذلك وتوقعت الفتنة ، فأزال السلطان تلك السكة وعفا عنها . النقود العربية فى تونس ، ص ٣٧ .

(١١٢) دائرة المعارف الاسلامية ، النشرة الفرنسية ، فصل سكة ، ج ٤ ، ص ٤٤١ . انظر ايضا :

— E.Strauss; Prix et Salaires à L'epoque mamlouke, etude sur L'etèt Economique de L'Egypte et de la Syrie à la fin du Moyen Age.

فى مجلة الدراسات الاسلامية ، باريس ١٩٤٩ ، ص ٥٤

(١١٣) — Gı b riel Le Bras; Op. Cit., p. 590—592

والدوكا عملة ذهبية استخدمت فى معظم أوربا ، قيمتها حوالى ٣ شلنات واستخدمت فى عهد الدوج وندولو فى البندقية الدوكات الذهبية وكانت تعادل ٩ شلنات . انظر :

— New English Dictionary, Vol III, p. 699.

والبيزنت عملة اسبانية فضية .

الموحدى وكان وزنه فى بداية القرن ٥هـ ( ١١م ) ٥ر١ جرام ، وهو أقل بكثير عن مثيله المرابطى الذى كان يزن ٢ جرام[١١٤] .

واتصالا بهذه المشكلة ، فقد وجهت الى اليهود منذ منتصف القرن ٧هـ ( ١٣م ) التهمة بادخال الخلل فى الدورة النقدية لما كانوا يقومون به من صهر نقود الفضة[١١٥] .

ويؤكد الاستاذ برنشفيك على الدور الهام الذى لعبه اليهود فى توثيق علاقات المغرب الاسلامى بالمشرق عبر أوربا من خلال تلك الوثائق التى سجلت فيما سجله أن المركبين سان جيل وسان غرنسوا شحنتا بمختلف أنواع البضائع وكانت نسبة كبيرة منها لحساب بعض اليهود وكانوا كسائر التجار المرسلين يصدرون الى افريقية عملة الفضة والجلود والحرير وعلى الخصوص عود القرنفل والزعفران[١١٦] .

---

(١١٤) دائرة المعارف الاسلامية ، فصل درهم ، ميلز ، ج ٢ ، ص ٣٢٨—٣٢٩ وانظر أيضا :

— Babriel Le Bras, Op. Cit., p. 298.

(١١٥) عن دورهم فى الحياة التجارية وتقربهم للسلطة الحفصية ، انظر : ميشيل امارى ، رسالة رقم ٢٨ ، ص ٨٣—٨٥ . ملحق رقم ١٦
وانظر أيضا :

— Brunschvig; La Berberie, Tom I,

(١١٦) اعتمدت الدولة الحفصية أيضا فى دخلها هذا على الجباية الداخلية خاصة من الارياف والبدو على يد وزارة خاصة تعرف باسم وزارة العمود ، انظر ، العامرى ، تاريخ المغرب ، ص ٢٠—٢٢ ، ١٧٣—١٧٤ . وغالبا ماكانت هذه الضرائب تثير مشاكل بين الحكومة والقضاة والمكاسين ، مثل ما حدث فى عهد السلطان أبو فارس عبد العزيز ، على يد قاضى القيروان أبو عبد الله بن شعيب عندما شكا اليه القيروانيين من ظلم المكاس بسبب فداحة المكس حيث قال : « ليس فى الشريعة مكس » وضرب المكاس وطيف به فى شوارع المدينة ، وبرفع الامر الى السلطان الحفصى أمر بعزل القاضى وقال : « هذا لا يصلح للولاية » . فاتخذت الدولة تدابير أخرى لحل تلك المشاكل حيث أمر السلطان نفسه باسقاط ضريبة المكس من الاسواق التالى ذكرها ومقدار مكسها :

ولم يكن غريبا على الدولة الحفصية التى كان النشاط التجارى بهـا يمثل جزءا كبيرا من دخلها حتىأنها خصصت له ادارة خاصة تعرف بالادارة القمرقية المعتمدة فى ميزانيتها على الدخول الوفيرة الناتجة من التجـارة والقرمنة • فكانت تعمل على تشـجيع التجـارة ، وتعـفى الحبوب من الضريبة ، وتمنح التجار الاجانب حقوق التصـدير للبضـائع ، معفاة من الضرائب ان كانت بضائعهم الى تونس تتساوى فيها قيمة الواردات مـع قيمة الصادرات • أما اذا زادت قيمة الصادرات على الواردات فتكون نسبة الضريبة ٥٪ ، وتعفى هذه الادارة الصفقات التى تعقد داخليا مع الاجانب من الضرائب • وكانت تشجع البضائع المحلية لتنشيط حركة الانتاج ، وتمنح تسهيلات كبيرة فى تصدير بضائعها ذات القيمة العالية خارجيا ، حتى أن دخل القمرقية فى العهد الحفصى كان يقدر سنويا بنحو ١٧٠ ألف دينار • وهو وان كان فيه مبالغة الا أنه يسجل مدى أهمية هذه الادارة وانتعاش التجارة بتونس(١١٧) •

---

— سوق الرهادنة — ٣ آلاف دينار ذهبا كل سنة .
— كل من اشترى شيئا من انواع الامتعة واللباس يغرم نصف عشـر الدينـار .
— رحبة الطعام = ٥ آلاف دينار — رحبة الماشية = ١٠ آلاف دينار
— رحبة الزيتون = ٥ آلاف دينار — رحبة العطارين = ١٥٠ الف دينـار
— فندق الادام = ٥٠ الف دينار — فندق الخضر = ٣ آلاف دينار .
— فندق الفحم = الف دينار — فندق الملح = ١٫٥٠٠ الف دينار .
— مجيى الاعمدة = الف دينار — سوق القشاشين = ٢٠٠ دينار .
دار الشغل = ٣ آلاف دينار — رزمة الصابون ٦ آلاف دينار .
— فندق البياض = ١ الف دينار — سوق الصفارين = ٥٠ دينار .
— وعلى الطرب والمطربين ومنهم العزافين = ٥٠ دينار . وكـذلك المخنثين فى الحفلات والفخارين وحتى الحانات لبيع الخمر .
انظر :

(١١٧) — Brunschvig, Ibid, Tom II, p. 239.
— Brunschvig, Op. Cit., p. 241.

ولمعرفة قدر النصاب الشرعى للمكاييل فى القطر التونسى ، اعتنى الحفصيون باصلاح المكاييل ، فاعتمدوا الوسق الشرعى فى قدره كالقفيز التونسى • كما أنهم أول من طبع الدينار والدرهم الذهبى التونسى الجديد المعروف بالدينار التونسى • وهناك اختلاف كبير فى قيمته حسب الفترات التاريخية ، وأهمية استخدامه ، كما أوجدوا نصف الدينار والدرهم الناصرى[١١٨] • وضربت أيضا فى عهد الحفصيين نقود النحاس لاول مرة وكانت تعرف باسم الحندوس كما سبق الذكر •

وكان المكس يقدر عموما فى النظام المالى الموحدى بنسبة العشر فى الشريعة الاسلامية • غير أن هذا العشر قد تراوح فى مقداره الفعلى بين ٨٪ و ٢٠٪ من ثمن البيع • ويرجع الاختلاف فى هذا التقدير الى اختلاف أنواع البضاعة وعقيدة التاجر ومدى قربه وبعده من السلطة • وقد توزع هذا القدر بنسبة ١٠٪ للاجانب ، ٥٪ للذمى ، ٥ر٢٪ للتاجر المسلم • والتزمت الدولة حسبما يتضح من الرسائل بهذه النسبة « وأموالهم فى جميع بلاد الموحدين لا نائبه تنوبهم ولا ضريبة تلزمهم سوى العشر المعتاد »[١١٩] • « وعليهم أن يؤدوا ما جرت العادة بأخذه منهم من العشر على العادات المعروفة والشرايط المعلومة دون زيادة عليهم •• »[١٢٠] •

---

(١٠٨) ويضيف د . حسن حسنى عبد الوهاب بأنهم قاموا بتجزئة الناصرى الى ( خمسى ) وهو خمسة اسداس الدرهم ، والى ( خروبة ) وهى اربعة اسداس الدرهم والى نصف ناصرى — يعنى — 3/6 والى قفصى وهو ( القبراط ) يعنى سدس الدرهم ، النقود العربية فى تونس ، ص ٣٧ .

(١١٩) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ٢ ، غير مؤرخة من عهد أبى يعقوب يوسف ، ص ٩ .

(١٢٠) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ٣ مؤرخة بتاريخ ١١٢٨ م ، ص ١٣ .

**(د) المعاهدات التجارية وموادها :**

هذا وقد أبرمت الدولة عددا من الاتفاقيات التجارية والمعاهدات ، أو تبادلت بعض الرسائل ، حسب الظروف السياسية والاقتصادية مع بعض البلدان والتى تمنحها امتيازات خاصة تصل أحيانا الى حد الاعفاء من الضريبة المعروفة بالقبضة ، وقد ورد ذلك فى رسالة ترجع الى عهد عبد المؤمن حررت على يد عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الحق بن أبى خراسان الى أرك بيشة : « .. وأما أمر القبضة التى تؤخذ من التجار وجرت به العادة فقد هونآها وأمرنا بلطفها ورشحنا لخدامنا أن كل تاجر من بلدكم متى وصل بسلعة ولم يتفق له معها أنه معافى فيها مرفوع عنه الواجب واللازم فى أمرها يعيدها الى بلده على غرضة مراده .. » . وتؤكد نفس الرسالة على اعفاء بعض المواد كالخشب : « .. وقد تركنا لتجاركم جميع ما يخرجون من الشب وأعفيناهم من الواجب فيه .. »(١٢١) . وهناك نظام آخر للاعفاء اذا تم البيع فيما بينهم على ظهر المركب أو عند وصول المراكب الى احدى الموانىء المسموح بالرسو فيها ولم تنشأ المركب تفريغ أو بيع بضائعها فيسقط عنها العشر(١٢٢) .

وهناك من النصوص الواردة فى معاهدة أبرمت بين الدولة الحفصية وبيزة ما يشير الى أن أبى فارس عبد العزيز الحفصى وقع فى عام ٨٠٠هـ — ١٣٩٧م بينه وبين تجار بيزة معاهدة طويلة الاجل تقضى باعفاء صادراتهم من الذهب والفضة والاحجار الكريمة من أداء الضريبة المقررة ، كما أعفيت من نفس الضريبة صادرات افريقية من الرصاص ، مما أدى الى انخفاض

---

(١٢١) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ١ ، مؤرخة فى شهر جمادى الاولى سنة ٥٥٢ هـ ، فى عهد عبد المؤمن ، ص ١—٦ .
(١٢٢) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ٥ ، ص ٢١ .

مقدار الذهب الداخل الى افريقية[١٢٣] .

وقد توفرت لدى مجموعة من المراسلات التجارية المتبادلة بين الحفصيين وبيزة ذيلت رسالتى بنصوص بعضها لاهميتها المباشرة بالموضوع . وتتضمن هذه المراسلات عقودا أساسية — تجارية :

— من أبى يحيى زكريا الى المسؤولين فى بيزة ينهى الى علمهم عقد صلح لمدة ١٠ أعوام شمسية متوالية من جمادى الاولى سنة ٧١٣هـ — ١٤ سبتمبر ١٣١٣م على شروط وأسس ( الرسالة رقم ٢٩ — طويلة تمتد من ص ٨٦ — ٩٧ ) .

— عقد تجارى من عهد أحمد بن تفراجين لمدة ١٠ أعوام شمسية من ١١ ربيع الثانى ٧٥٤هـ — ١٦ مايو ١٣٥٣م على أسس وشروط ( الرسالة رقم ٣٠ — طويلة أيضا تمتد من ص ٩٨ — ١١١ ) .

— عقد صلح وتفويض بالعمل المشروط طول حياة السلطان — أبى فارس عبد العزيز — من تونس فى ربيع الاول ٨٠٠هـ — ١٤ ديسمبر ١٣٩٧م ( الرسالة رقم ٣٤ ، من ص ١٢٣ — ١٣٦ ) .

وبين هذه العقود تشابه واضح فى الاسس والشروط كأساس للعلاقات التجارية والدينية والاجتماعية ، وتقدير مدى العقوبة على المخالفات لتلك الشروط[١٢٤] .

وللاسف لم يرد ذكر المشرق الاسلامى فى هذه المراسلات الا فى اشارات نادرة . ومع ذلك ، فان الحركة التجارية بين المغرب والمشرق

---

(١٢٣) أنظر الملحق رقم ، ١٥

(١٢٤) أنظر الملحق رقم ١٦ .

الاسلاميين فى العصر الموحدى تبدو أكثر وضوحا من استعراض أنواع السلع الرئيسية المتبادلة •

فأسواق الحبوب التى راجت داخليا بين الحواضر والمدن تركزت فى ثلاثة تيارات : أولا : من مصر نحو ليبيا وبرقة غربا • وخليج عدن والخليج العربى شرقا ومنها الى بغداد ، ثانيا : بلاد الشام ومنها نحو الجزيرة العربية ثم الى بغداد ، ثالثا : شمال أفريقيا كله من القيروان الى باجة وتونس حيث يخرج حوالى ألف حمل جمل ، وقمح المغرب نحو الاندلس وصقلية ، وبالطريق البرى فى اتجاه سجلماسة جنوبا نحو الصحراء •

ويعتبر الزيتون من أهم الصادرات الافريقية خاصة فى تونس • وهو من أهم المحاصيل الزراعية فى حوض البحر المتوسط وله دور اقتصادى هام فى حياة شعوب تلك المنطقة • ويزرع فى مناطق الكثافة السكانية فى تونس وصفاقص التى تعتبر من أهم الموانىء لتصدير زيت الزيتون الى مصر والمغرب وصقلية بحيث كانت السفن تقصد صفاقص « فترسى فى أوحالها عند الجزر ثم تصلها وقت المد حاملة اليها التجار والاموال من كل جهة قصد ابتياع زيتها »(١٢٥) • وتعتمد على هذا الزيت صناعة الصابون وزيت التجميل وأهم مراكزه ليبيا وافريقية ومنها كانت تسوق فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط •

ومع فترات الاضطرابات فى تونس ، حلت البندقية محلها فى نقل الزيت الى مصر وجزيرة كريت ، وذكر شاهد عيان فى رحلته أن « السفن الايطالية كانت تحمل الزيت من جزيرة جربة الى الاسكندرية »(١٢٦) • ولتوافر انتاج تونس من الزيتون انخفض سعره فقد ذكر ابن حوقل :

---

(١٢٥) نجاة باشا ، التجارة فى المغرب الاسلامى ، ص ٤٥ .

(١٢٦) — Brunschvig, Op. Cit., Tom II, p. 262.

« كان يباع ستون وسبعون قفيزا بدينارا »(١٢٧) . ولا تزال زراعة الزيتون وزيته تلقى من العناية والرعاية بهذا الاقليم أكثر من أى اقليم فى البحر المتوسط .

ويلى الزيتون فى مجموع الثروة الزراعية المصدرة الكروم الطازج أو المجفف وأجود أنواعه بدمشق وصعيد مصر ومالقة فى الاندلس ، وكانت معاصره منتشرة فى مناطق كثيرة من المغرب ومصر ورغم تحريم الاسلام للخمور ، والتى كانت تصدر من الساحل الافريقى ودمياط الى أوربا(١٢٨) .

وتعتبر التمور من الحاصلات الزراعية الهامة التى تداولتها التجارة البحرية ، فهو ذات منبت عراقى ، وأدخل مع الفتوح الاسلامية الى الشام ومصر والجنوب التونسى حتى الصحراء المغربية ومنها الى الاندلس . وتعتبر بلاد الجريد من أهم مناطق تصديره ، ويذكر البكرى فى تمر توزر : « وانتاجها من التمور أخصب الانتاج بافريقية ويخرج منها كل يوم ألف حمل الى كافة الجهات »(١٢٩) . ولكثرة الانتاج كان يباع أحيانا وقر الجمل بدرهمين « وفى وادى درعة يكون التمر رخيصا جدا ، حتى ربما بيع فى بعض السنين الجيدة حمل الجمل بنصف دينار »(١٣٠) .

ولعب التمر أيضا دورا هاما فى التجارة الصحراوية حيث كان يحمل

---

(١٢٧) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٤٧ .

(١٢٨) ابن مماتى ، كتاب قوانين الدواوين ، جمعه وحققه الدكتور عزيز سوريال عطية ، القاهرة ، ١٩٤٣ ، ص ٢٢١ . وانظر أيضا : القلقشندى صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٣٨٦ . وراجع أيضا : د . محمد عبد الهادى شعيرة الاسكندرية من الفتح العربى الى نهاية العصر الفاطمى ، مقال فى الكتاب الذى أصدرته غرفة الاسكندرية التجارية ١٩٤٩ ، ص ٩٠ . د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢٩٦ .

(١٢٩) البكرى ، المسالك والممالك ، ص ١١٨ .

(١٣٠) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ٢١ ، آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية ج ٢ ، ص ٣٠٣ .

فى القوافل التى تسير من شمال افريقيا الى بلاد السودان عبر الصحراء ، وكانوا يعودون بسبى العبيد والذهب ، وكان أكبر مركز لتجارة التمر مدينة سجلماسة الواقعة فى جنوب مراكش[١٣١] .

كان الشمع من المواد التى تصدرها افريقية من تونس بكثرة ، ويليه الملح الذى كان يصدر بكثرة الى السودان وأوربا ، واحتكرت البندقية تجارة الملح بدليل ما صرح به أحد نوابها بتونس سنة ٧٩٣هـ — ١٣٩١م مخاطبا السلطان أبى العباس الحفصى قائلا : « ان جمهوريتنا لا تريد أن تستورد من بلادكم غير الحبوب والملح »[١٣٢] . وقد التزمت البندقية عن طريق الاتفاقات بتوريد الرصاص من تونس مع الاعفاء من الضرائب .

ونضيف الى تلك المنتجات الزراعية والصناعية التى كانت من السلع الرئيسية للتجارة بين المغرب الاسلامى والمشرق تجارة التوابل والشب . وكانت تستورد من الشرق عبر مصر وتحفظ فى الفنادق قبل تصديرها الى أوربا ، وكانت لها سوق نافقة فى الغرب الاوربى فهى تصلح للطعام ولصناعة العطور والصباغة والصيدلة وفى مقدمتها حب الفلفل والزنجبيل والقرفة ( الدارصينى ) وهى مواد لا غناء عنها . وكان حب الفلفل ( أو كما يسمونه المغاربة ابزار ) يستخدم لشدة الاقبال عليه كعملة فى المفاوضات . ومن بين السلع الاسلامية المطلوبة الزعفران والنيلة ويستوردان من الهند والعراق والشام وبلاد الجريد . واستعمل المغرب الاسلامى — القرمز وكان يصدر منها الى الاندلس[١٣٣] .

---

(١٣١) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٠ . الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ٤ ، ٦ ، ٢١ .

(١٣٢) — Brunschvig, Op. Cit., p. 203.

(١٣٣) نجاة باشا ، المرجع السابق ، ص ٦٥ . ولبيان مدى أهمية تجارة الفلفل يذكر السفير البندقى للسلطان الغورى رعاية التجار البنادقة المقيمين فى دمشق بسبب ما يتعرضون له من مظالم من نواب وأمراء الشام ويقول :

ومن مواد تجارة المغرب مع المشرق سمك التن ويصاد فى سواحل المغرب واسبانيا المقابل لها ، وخصوصا فى مدينة سبتة حيث يجفف ويباع. كذلك كان الطين — والمقصود به تين — يحمل الى مختلف البلاد دانيها وقاصيها . ويعتبر من أغلى الهدايا حيث كان يتحف به الملوك والاشراف الكبار ، وكان الرطل منه يباع فى مصر والمغرب بدينار . وكذلك كان يصدر من المغرب الى المشرق بصفة خاصة من طليطلة الى مصر والشام والعراق(١٣٤) .

وكان الاوربيون يتجرون فى ملح النوشادر كمادة كيماوية هامة مصدرها العراق وينتقل عبر الشام ومصر وصقلية ، ثم الزئبق الذى يكثر وجوده فى المغرب ، ويتفر فى مدينة قرطبة بالاندلس (١٣٥) . ويزيد الدمشقى : « .. ان أحسن الزئبق ما جلب من المعدن الذى بقرب طليطلة »(١٣٦) .

يضاف الى ذلك الشب ، الذى أعفى بسبب أهميته من الضرائب . وكان المرجان من المواد الهامة فى تجارة غرب المتوسط الى المشرق ، وكان يصاد من سبتة وما حولها ، وهو صعب الاستخراج ، ولكن ما يستخرج ذو قيمة مادية تساوى من العشرة دراهم الى العشرة آلاف درهم (١٣٧) .

---

« .. ومن ذلك فرض الجمارك على تجارنا شراء ٥٣٠ حملا من الفلفل بسعر مرتفع علاوة على حمولتنا العادية وهذا اجراء لا يمكن احتماله لانه سبب لنا خسارة فادحة لتجارتنا » . انظر ، نعيم زكى فهمى سليمان ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، رسالة دكتوراه ، جامعة القاهرة ١٩٦٨ ، ملحق رقم ٦ ، ص ١٨ — ١٩ من الملاحق ( تعليمات الى السفير بندرينو سانودو — سفير البندقية الى السلطان الاشرف قانصوه الغورى ، ٢٥ أكتوبر ١٥٠٢ البندقية ) .

(١٣٤) آدم ميتز ، المصدر السابق ، ص ٣٠٧ — ٣١١ .

(١٣٥) الادريسى ، المصدر السابق ، ص ٢١٢—٢١٣ .

(١٣٦) الدمشقى ، محاسن التجارة ، القاهرة ، ١٣١٨ هـ ، ص ٢٩ .

(١٣٧) الادريسى ، المصدر السابق ، ص ١١٦ .

وكانت السفن الاوربية تصل الى ميناء الاسكندرية ودمياط محملة بالفراء والجوخ وتعود موسقة بالبخور والخزف والاقمشة[١٣٨] • ومن المواد الهامة الخشب اللازم لصناعة السفن وأعمال النجارة والاخشاب كمادة تجارية هامة كانت تتجمع فى مدينة الاسكندرية خاصة خشب الصنوبر ومنها توزع الى مصر والشام وصقلية والثغور المتوسطية • ومن أفضل أنواع الاخشاب المستوردة الاخشاب الصنوبرية التى كانت تستقطع من غابات فى طرطوشة وقصر أبى دانس بالاندلس ، ولخشب الصنوبر حمرة خاصة فى لونه ومن جودته لا يتأثر بالسوس[١٣٩] • وقد اختصت الدولة الموحدية فى استيراده للمصالح الهامة مثل البحرية وكان الفائض يعرض للبيع بسعر تحدده الدولة داخليا •

وكان حظ العالم الاسلامى من المعادن قليلا[١٤٠] ، ولضرورته فى تنقية المياه وغير ذلك من الاحتياجات اهتمت الدولة باستيراده سواء كمادة خام أو مطروقا ، وكانت أهم مصادره الهند فى الشرق كما كان يتوفر فى اسبانيا وبعض الاقطار الاوربية • ومن أشهر المصنوعات الفولاذية السيوف الهندية والسيوف الافرنجية ، التى كانت ترد الى العالم الاسلامى عن طريق الاندلس وأوربا[١٤١] •

ويصدر زيت الزيتون من المهدية الى جميع بلاد المشرق ، ومن

---

(١٣٨) د . عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٥١٦ — ٥١٧ .

(١٣٩) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٩٨ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١٢٤ ، ١٤٥ ، ١٦١ ، ١٨١ . د . عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والاندلس ص ٥٧ — ٥٨ .

(١٤٠) د . عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(١٤١) البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، الجزائر ١٩١١ ، ص ٢٠ .

صفاقص وقابس وبرقـــة[١٤٢] • الفستق من قفصـــة الى مصر والاندلس وسجلماسة ، والجوز من سطيف الى مصر • الثياب والعمائم الســـوسية ، الثياب الحريرية من قابس والصوفية من أغمات وريـــكة[١٤٣] • وتعـــود المراكب من الاسكندرية والمشرق محملة بجلود النمور والبقر الواردة من برقة [١٤٤] ، وكان يحمل من طرابلس الى مصر الكتان والعسل والقطران والسمن[١٤٥] • يضاف الى ذلك المراكب المحملة بالزيت من اشبيلية نحـــو سلا والاسكندرية ثم المشرق • ومن جيان الزعفران ، الوبر والجلود ومن سرقسطة الفراء ، ومن المرية أقمشة الحرير ، ومن شـــاطبة الورق ، ومن قرطبة الزئبق ومن شواطىء الاطلسى العنبر[١٤٦] •

**(د) سلاطين المماليك ودورهم فى العلاقات التجارية :**

وحرص سلاطين المماليك على تشجيـــع النشـــاط التجارى من ميناء الاسكندرية فى كافة الاتجاهات ، وظهر هذا واضحا من الامان الذى أعلنه السلطان قلاوون وجاء فيه : « •• ومن يؤثر الورود الى ممالكنا أن أقام أو تردد •• فليعزم عزم من قدر له فى ذلك الخير والخيرة ، لانها فى الدنيـــا جنة عدن لمن قطن ومسلاة لمن تغرب عن الوطن •• فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغـــيرهم فليأخذ

---

(١٤٢) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ١٠٩ . ابن حوقل ، المصـــدر السابق ، ص ٧٢ .

(١٤٣) الادريسى ، نفس المصدر ، ص ١٠٦ .

(١٤٤) الادريسى ، نفس المصدر ، ص ١٢١ .

(١٤٥) الادريسى ، نفس المصدر ، ص ١٧٦ .

(١٤٦) الادريسى ، نفس المصدر ، ص ١٣٦ ، ١٧٨ ، ١٩٢ ، ١٩٩، ٢١٣ وانظر أيضا : العذرى ( أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلالىء ت ٤٧٨ هـ/ ٩٨٨ م ) ، ترصيع الاخبار وتنويع الاثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك الى الممالك ، نشر عبد العزيز الاهوانى ، مدريد ١٩٦٥ ، ص ٢٢ ، ٩٥ . د . سالم ، تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والاندلس ، ص ٦٢ — ٦٤ .

الاهبة فى الارتحال الينا ليجد الفعال فى المقال أكبر ويرى احسان يقابل فى الوفاء بهذه العهود بالاكثر ..»[١٤٧] . فكثر وفود التجار من الشرق والغرب على السواء بدليل عقد عدد كبير من المعاهدات التجارية مع الجمهوريات الايطالية وصقلية وقشتالة وأرغونة غربا ، بل ومع جزيرة سيلان شرقا[١٤٨] .

ويمكن أن نستنتج توثق العلاقات الودية بين الدولة الحفصية ومصر المملوكية من الرسائل المتبادلة بين سلاطين المماليك فى مصر والحفصيين فى تونس ، بحيث قامت الدولة الحفصية بدور الوساطة لدى مصر لصالح التجار الاجانب من أجل تحقيق مطالب تجارية للفرنج الفرنتيين فى المرانى المصرية أسوة بما حصل عليه البنادقة من امتيازات[١٤٩] . مع خضوع هؤلاء للتنظيمات التجارية فى مصر ومع تعهد مصر بتوفير الامن فى اطار ما هو من علاقات تجارية .

---

(١٤٧) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧١٣ .

(١٤٨) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، أنظر :

أ — رسالة رقم ٣٧ موقعة بتاريخ ٢٢ سبتمبر ١٤٢٢ م فى عهد السلطان برسباى ، ص ١٦٥ — ١٦٨ .

ب — رسالة رقم ٣٩ موقعة بتاريخ ٢٣ ذى الحجة ٨٩٤ هـ فى عهد السلطان قايتباى ، ص ١٨١ — ١٨٣ .

جـ — رسالة رقم ١٤ موقعة بتاريخ ١٠ جمادى الثانية ٩٠١ هـ / ٢٦ فبراير ١٤٩٦ م ، فى عهد السلطان قايتباى ، ص ٢١٠ — ٢١٣ .

د — رسالة رقم ٤٢ موقعة بتاريخ ١٨ ذو القعدة ٩١١ هـ / ١٢ أبريل ١٥٠٦ . ، فى عهد السلطان قانصوه الغورى ، ص ٢١٤ — ٢١٧ .

(١٤٩) نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ، ص ٣٧ حيث يقول : « .. وبعد مفاوضات ناجحة استأنف تجار جنوة أعمالهم التجارية فى مصر والشام عام ١٤٧٤ م وفتحت الوكالة الجنوية أبوابها ، وأعيدت لهم فنادقهم بالاسكندرية وبيروت ودمشق واعتمدت السلطات قناصلهم كممثلين لهم ولتجارهم » . أنظر ملحق رقم ١٩